



عبدالله كنوت

حمود في الفكر الإسلامي



إهداء 2005

جمعية أصدقاء المكتبة
المغربية

هدية من الجمعية
المغربية لأصدقاء
مكتبة الإسكندرية

جولات
في الفكر الاسلامي

عبدالله كنوت

جولات
فى الفكر الاسلامى

1980 - 1400

مطبعة الشويخ «ديسبريس» - 4 شارع غورغيز - تطوان (المغرب)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

لم يكن الفكر الاسلامي في وقت من الاوقات بحاجة الى عرضه وتقديمه للناس في صورته الجلية، وحقيقته الناصعة كهذا الوقت، ذلك أن كثرة المذاهب والانكار، وتعدد الفلسفات والانظار، شغلت الناس وأرهقتهم عسراً من أمرهم، فصرفتهم عن الدراسات الجادة والابحاث المستقصية، لا سيما في البلاد التي غلبت عليها النزعة المادية، وأعرضت عن التربية الروحية، علماً بأن الدين أصبح فيها ظاهرة هامشية، فلم يبق له دور في حياتها اليومية يستوجب التأمل فيه فأحرى التعمق والاستقراء .

وسرى هذا الاعراض بالمدى الى أبنا الأمة الاسلامية التي أقبلت على الحضارة الغربية بكليتها تصطنعها بما فيها من خير شر، ونافع وضار، وأكثر مما ملكت عليها لبها وجردتها من خصائصها، هذه المنهجية العلمية المزعومة التي تشكر لكل ما لا يقع تحت الحس، ولا يخضع للتجربة العملية، ولو كان حقيقة الحقائق وأوجب الواجبات .

ومع أن الفارق كبير، وكبير جداً، بين مفهوم الدين عندنا وعندهم، بل واقع الذي ما نزال نعيشه في شتى مجالات الحياة برغم عامل التغريب والاستلاب الذي تمكن منا ونفذ إلى الاعماق، فإن المسؤولين عن برامج التربية الوطنية في العالم الاسلامي لا يعيرون أدنى اهتمام للفكر الديني، وينظرون إليه نظر الغربيين القاصر على الجانب اللاهوتي منه، في سطحية متناهية، وبذلك فقد الاسلام الذي هو دين علم وعمل، ومعاش ومعاد، ومنهج حياة متكامل في العقيدة

والشريعة، والسياسة والاقتصاد، والاجتماع والاخلاق، فقد تأثره على النفوس وأصبح اسما بدون معنى عند الكثرة الكاثرة من أهله وذويه، وعلى العكس مما يقال ان أهل مكة أدري بشعابها، صار هؤلاء أجهل الناس بمدىنتهم وأكثرهم قبحاً في دروبها .

لكن الانصاف يقتضينا أن نقول ان ثلة من أهل العلم أدركوا هذا الضياع منذ أوائل القرن المنصرم الآن، وعلى رأسهم الشيخ محمد عبيد، فعملوا على تجلية الفكر الاسلامي وإبرازه في أصدق صوره تعبيراً عن سمو الانساني والاصلاح الذي أتى به الدين الحنيف للبشرية جمعاء، وأوجدوا فلسفة جديدة للعقيدة والشريعة الاسلاميتين، تقف في صف واحد مع الفلسفة التي وضعها علماء الاوائل للتحدي الفلسفة اليونانية وكل الفلسفات الملحدة في العالم القديم، وكذلك يمكننا أن نضرب المهاجمين بأحجارهم، ونصد المنعسفين عن تعنتهم، كما فعل أسلافنا، حماية لعقيدتنا وشريعتنا، وإظهاراً لتفوقهما على كل الايديولوجيات والقوانين المعاصرة، التي لم نفتأ نتخبط في حياتها، من حين بدأنا نحتك بالحضارة الغربية ويقتبس منها على غير هدى، ولكن هذه الفلسفة أو هذا الفكر الاسلامي المجدد، ما زال لم يعرف الطريق الى كتب تعليمنا ومناهجنا التربوية، وقوفاً مع ما ورثناه عن الاجنبي الذي قاومنا غزوه المادي ولم نقاوم غزوه الفكري، واعتقاداً بأن أساليبه ونظمه هي أفضل الوسائل وأقرب الطرق الى النجاح .

وكخطاً هؤلاء المستغربين، يخطئ من يظن ان الدين نقل محض من غير نظر ولا دليل، وكان يكفي هذا الفريق من الناس أن يحمل مقارنة بين المذهب الاسلامي التي تاقبها الامة بالقبول، وهي التي تأخذ بالنظر والقياس، والمذهب المتحجر الذي يقف مع ظاهر النقل، فيرى أنه برغم حملاته الشعواء على علماء البلة وأئمة الهدى، لم يحظ بالقبول في عصر من العصور، فكيف يطمع في أن يحل محل المذاهب الاخرى في هذا العصر الذي يطبعه الرأي الحر والبحث العلمي، لا سيما وعندنا قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « رب مبلغ أوعى من سامع، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » وقوله : « حدثوا الناس على قدر عقولهم، أتحبون أن يكذب الله ورسوله » .

وغير خفي أن نواحي الفكر الاسلامي كثيرة ومتنوعة، وقد أشبعها علماءنا المصلحون نظراً وبحثاً، وعلى الخصوص ما تعرض منها للنقد والتشنيع من خصوم

الاسلام كالمبشرين المسيحيين، والمستشرقين الحاقدين، فنقضوا دعاويهم وزيفوا
أباطيلهم، وجددوا المعالم وأوضحوا السبل، بما أعاد للاسلام نصرته، وأوجب
على الجميع حجته .

ونحن على نهجهم اللاحب، لا نزال نبين ما يحتاج الى البيان، ونعرض
للمشاكل التي طرحتها الحضارة الغربية على مجتمعاتنا الاسلامي، كقضية المرأة
ونظام الحكم والتنمية الاقتصادية وغير ذلك، فنقرر نظر الاسلام فيها بما يزيل
كل شبهة ولا يبقى لغيره صلاحية، إلا أننا في هذا الكتاب، وإن لم نحد عن
الخط، سنتطرق للفكر الاسلامي من ناحية مصادره الاصلية، والتطورات الطارئة
عليه، وحياته المستقبلية، وطبيعة بعض الدعوات القائمة في المغرب، والشخصيات
التي قامت بها، ونشوء ما يسمى بالعمل في التشريع المغربي، وحياة الدعوة
والدعاة في المغرب، وغير ذلك مما يكون دراسة موضوعية مبنية على المعرفة
ومطعمة ببعض النظريات الجديدة عن الاسلام ودعوته، والمنهج العقلي الذي
يحب أن يقدم به في العصر الحاضر، وذلك ما يمكن أن نجمله في عبارة
جولات في الفكر الاسلامي .

عبد الله كنون الحسني .

ذكرى نزول القرآن وتحقيقه في تاريخه

ان ذكرى اي حادث تقتضى اولا وبالذات التعرض لتاريخ ذلك الحادث، وتحديد زمن وقوعه، لمطابق وقت الذكرى الحادث المذكور، لا من حيث الظروف الزمنية التي وقع فيها فحسب، بل ومن حيث الاحوال والملابسات التي صاحبتة وارتبطت به، فان امة ذكرى انما يراد بها التأمل والاعتبار، ولا بد من توفير الاسباب المادية والمعنوية التي تعين على تحقيق هذا الغرض المتوخى من الذكرى .

(1) ونزول القرآن الكريم على النبي (ص) هو باتفاق المسلمين كان منجبا اي مفرقا بحسب الوقائع التي تقتضى نزول ما ينزل منه اما جوابا عن سؤال وجه اليه (ص) او حكما في قضية عرضت عليه، او ردا على زعم من مزاعم المشركين في مسائل الاعتقاد والبعث والجزاء، او نقضا لمطعن من مطعن اليهود والنصارى في الرسالة المحمدية والدين الاسلامي، او بيانا عاما للناس جميعا في الدعوة الى الله، وحقائق الايمان، واصول التشريع، واحوال المعاد، مما اضطلع الرسول الاحرم بتبليغه الى الخلق مدة الرسالة لهدايتهم الى الدين القويم .

وهذا الامر قد افصح به القرآن في معرض الرد على الكفار الذين اتقدوا عدم نزوله مرة واحدة « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة، كذلك لنثبت به فؤادك » (1) اي انزلناه كذلك منجما لتثبيت فؤادك بالوحي المتتابع الذي تتجدد به صلتك بالسماء ويستمر امدادها لك بالعون، فيطمئن المومنون الى نهاية الله بك، ورعايته لك، ويرتدع الكفار عن تهذيبك ومحاجتك، لان في ذلك تصديقك وتزكية دعواك للرسالة، بل تسهيل الامر عليك وعلى المومنين بعدم إلزامهم بالتكاليف الشاقة دفعة واحدة.

(2) وقد نشأ عن نزول القرآن بهذه الصفة، علوم ومباحث واسعة تسمى علوم القرآن، لا بد للمفسر ان يلم بها، والا عميت عليه الانبياء في معرفة معاني الآي الكريمة واسرار التنزيل .

فمنها العلم باسباب النزول، وذلك ان القرآن منه ما نزل ابتداء، بياناً للناس، ومنه ما نزل بسبب ما، جواباً عن سؤال او حكماً في قضية مثلاً على ما مر آنفاً. فيحتاج المفسر لمعرفة هذا السبب، وقد عني به العلماء شديد العناية وافردوه بالتأليف العديدة.

ومنها معرفة المكي والمدني اي ما نزل منه قبل الهجرة والنبي (ص) مقيم بمكة، وما نزل بعدها والنبي مقيم بالمدينة، ويحتاج اليه لمعرفة المتقدم من المتأخر، وتقرن على ذلك احكام، فضلاً عن التفرقة بين طبيعة الدعوة في الفترتين. ولا تقل عناية العلماء بهذا البحث عن سابقه .

ومنها معرفة الناسخ والمنسوخ، فان بعض الاحكام التي تقرر في اول الاسلام افما خانت موقته للتدرج في التشريع ثم نسخت بعد ذلك، ويجب العلم بها لما تتضمنه من حكم كالتيسير على

(1) سورة الفرقان الآية 32.

الامة، وبما ان الجهل بذلك ربما يؤدي الى الوقوع في المحذور، فقد روي عن علي (ض) انه قال لقاض اتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال لا. قال هلكت وأهلكت (1).

وقد اهتمت الامة بهذا الفرع من علوم القرآن اشد الاهتمام، وخصته كتب الاصول بدراسات قيمة، واما الذين افوا فيه على انفراد فهم خلائق لا يحصون من المتقدمين والمتأخرين .

وهكذا نرى عمليا ان القرآن نزل مفرقا، وفي اوقات متباعدة، وان تاريخه هو تاريخ الرسالة، ومدته هي مدتها او قريبا من ذلك، وانه لا يصح ان يقال ان القرآن اي المصحف نزل في تاريخ كذا، لتاريخ معين لا يمتد من تاريخ البعثة الى ما قبل وفاة النبي (ص) بقليل.

(3) نعم هناك مبدأ النزول اي اول يوم نزل فيه شيء من القرآن، وهذا هو الذي يعطينا تاريخ الذكرى، لانه يعتبر كيوم لولادة النبي يحتفل به سنويا كثير من الناس .

ولقد صرح القرآن بان نزوله كان في رمضان، وفي ليلة القدر منه على الخصوص، كما قال تعالى (شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن) (2) وقال (انا انزلناه في ليلة القدر) (3) واكد ذلك بالنسبة الى الليلة المذكورة قوله في الآية الاخرى (انا انزلناه في ليلة مباركة) (4).

واذن فقد تحدد نزول القرآن بشهر معين، وليلة مسماة

(1) الاتقان للسيوطي ج 2 ص 20.

(2) سورة البقرة الآية 185.

(3) سورة القدر الآية 1.

(4) سورة الدخان الآية 2.

منه ولكن بقي تحديد السنة التي منها هذا الشهر، وإن لم يتوقف عليها فرض الذكرى، إلا في عدد ما مر عليها من السنين .
ومن السهل أن نقول لها السنة الأولى للبعثة، ضرورة أن النزول كان مقروفا بهذه (1) .

وبعثة النبي (ص) كانت في القول المشهور الذي يأخذ به الجمهور، بعد مرور أربعين سنة على ميلاده الشريف . وبما أن ميلاده كان في ربيع الأول من عام الفيل، لاثنين عشرة ليلة خلت منه، على القول المعتمد، فإن رمضان الذي أنزل عليه فيه كان سنة إحدى وأربعين من ميلاده .

فيكون قد مر على نزول القرآن الآن أربع عشرة مائة سنة، بزيادة ثلاث عشرة سنة على عامنا هذا الذي هو عام 1387 وذلك بالنظر لكون مدة الرسالة ثلاثا وعشرين سنة، ثلاث عشرة بمكة قبل الهجرة وعشرا بالمدينة بعدها . وهو قول الجمهور الذي عليه المعول (2) .

وبالنظر لقول أنس أنه (ص) مكث بمكة بعد الرسالة عشر سنين وبالمدينة عشر سنين، يكون قد مر على هذه الذكرى ثلاث عشرة وسبع وتسعون سنة فقط . ولكنه قول انفرد به أنس (3) وقال العلماء أنه مبني على الغاء السنوات الثلاث التي قتر فيها الوحي

وتم قول ثالث بأنه (ص) مكث بمكة خمس عشرة سنة

(1) انظر الزرقاني على المواهب ج 1 ص 207 .

(2) المصدر السابق ج 1 ص 208 .

(3) طبقات ابن سعد ج 1 ص 190 .

بعد البعثة (1)، فيكون الآن قد مر على نزول القرآن هاتين اثنتان وأربعة عشر قرناً . وقمام ضبط هذا التاريخ يحملنا على تعيين يوم النزول ايضاً من رمضان فلا يبقى مشاعاً بين ايام الشهر كله . وقد اشتهر انه كان يوم الاثنين لسبع عشرة خلت منه رواه ابن سعد (2) واخذ به غير واحد، وهو يخالف ما صرح به الآية الكريمة من نزوله في ليلة القدر، الا اننا نعلم ان هذه الليلة قد اختلف فيها هي الاخرى، ومن جملة الاقوال فيها انها منتقلة بين ليالي رمضان، فيحتمل ان تكون في ذلك العام صادفت اليوم المذكور .

لكن الصحيح والذي عليه العمل أن ليلة القدر هي ليلة سبع وعشرين، لما في البخاري من قوله (ض) التمسوها في العشر الاواخر (3)، ولما في مسلم من ان ابي بن كعب قيل له ان اخاك ابن سعود يقول من يقم الحول يصب ليلة القدر فقال رحمه الله اراد ان لا يتكلم الناس اما انه قد علم انها في رمضان وانها في العشر الاواخر وانها ليلة سبع وعشرين ثم حلف لا يستثنى انها ليلة سبع وعشرين بالعلامة التي اخبرهم بها النبي (ص) (4) .

(4) - هذا تاريخ نزول القرآن بمعنى مبدأ نزوله، مأخوذاً من القرآن نفسه، وهو احد المعنيين الذين حمل العلماء عليهما الآيات الواردة في ذلك .

(1) البرهان للزركشي ج 1 ص 282 .

(2) الطبقات ج 1 ص 192 .

(3) البخاري ج 1 ص 252 .

(4) صحيح مسلم ج 2 ص 126 .

والمعنى الثاني ان نزوله كان جملة واحدة الى السماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك منجما في مدة الرسالة التي تقراوح بين عشرين سنة وخمس وعشرين سنة على الخلاف فيها. وهو قول اكثر المفسرين، وتؤيده الرواية الصحيحة عن ابن عباس قال انزل القرآن جملة واحدة الى سماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة، اخرجاه الحاكم في وقال المستدرک صحيح على شرط الشيخين، واخرجه النسائي القرآن بلفظ فصل من الذكر، فوضع في بيت العزة من السماء جبريل الدنيا فجعل ينزل به على النبي (ص)، قال البدر الزركشي واسناده صحيح .

ومعلوم ان هذا لا يقال من قبل الرأي فعلمه الرفع الى النبي (ص)، وهذا النزول الغيبي ان كان ما يحمل على القول به هو ابقاء الآيات الواردة في نزول القرآن على ظاهرها من نزوله جملة واحدة، فانه لا يعارض نزوله الحسي في التاريخ المذكور اي ابتداء نزوله على النبي (ص) مفرقا، بل ان الرواية نفسها تشير الى ذلك، وتبين المراد به فهما اذن نزولان، غيبي وحسي، وتاريخهما واحد.

ويتساءل العلامة الزركشي عن السر في هذا النزول ويجيب عن ذلك بقوله : فان قيل ما السر في انزاله جملة الى السماء؟ قيل فيه تفهيم لامره وامر من نزل عليه، وذلك باعلان سكان السماوات السبع ان هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لاشرف الامم، قد قربناه اليهم لننزلهم عليهم ، (1) .

على اننا يمكن ان نقول في حكمة ذلك انه لاطلاع الملائكة وجميع المؤمنين بالغيب على احاطة علم الله تعالى في

(1) البرهان ل ص 220 . والجملة الاخيرة التي وردت فيه هكذا : ولقد صرفناه اليهم لينزلهم عليهم . وقد صححناها من الاثتان .

الازل بواقع الاشياء كما تقع فيما لا يزال، خلافا لمن نفى علمه بذلك من الفلاسفة والمعتزلة، وقال انما يعلم الكلليات ولا يعلم الجزئيات فهو برهان بطعن الى المؤمن، ويتأهد بممارسة السيرة ودراسة القرآن .

(5) وكان اول ما نزل هو قوله تعالى «اقرأ باسم ربك» (1) كما تفيد السنة الصحيحة، ففي البخاري عن عائشة قالت «اول ما بدى به رسول الله (ص) من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حجب الهة الغلاء، فكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه وهو التعبد، الليالي ذوات العدد، قبل ان ينزع الى اهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال اقرأ، قال ما انا بقاري، قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم ارسلني فقال اقرأ قلت ما انا بقاري فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم ارسلني فقال اقرأ فقلت ما انا بقاري، فأخذني فغطني الثالثة ثم ارسلني فقال اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الانسان من علق، اقرأ وربك الاكرم، فرجع بها رسول الله (ص) يرجف فؤاده ، الحديث (2) .

لكن جاء في صحيح مسلم عن جابر «اول ما نزل من القرآن سورة المدثر» (3) وهذا محمول عند العلماء على ما بعد

(1) سورة العلق الآية .

(2) البخاري ج 1 ص 8 وقوله فغطني اي ضمنني الى صدره قصد الاستيناس وازالة الرعب، وانتهت رواية البخاري الى قوله وربك الاكرم، ولكن رواية مسلم تنتهي الى قوله ما لم يعلم .

(3) ج 1 ص 68 .

فترة الوحي التي تلت النزول الاول (1) والروايات المختلفة الالفاظ للحدث عند البخاري وعند مسلم نفسه تؤيد ذلك . وفورد هنا رواية البخاري لوضوحها واختصارها، وهي عندهما معا من طريق ابن شهاب الزهري عن ابي سلمة بن عبد الرحمان عن جابر ان النبي (ص) قال وهو يحدث عن فترة الوحي «بينما انا امشي اذ سمعت صوتا من السماء، فرفعت بصري فاذا الملك النبي جاءني بحراء جالس على كرسى بين السماء والارض، فرعيت منه فرجعت فقلت زملوني زملوني، زاد مسلم فذرني، فأنزل الله تعالى يا ايها المدثر، قم فانذر، الى قوله والرجز فاهجر، فعصى الوحي وتابع (2) .

فبان بهذا ان الاولوية الحقيقية هي التي في حديث عائشة، وان التي في حديث جابر انما هي اولوية اضافية، لان الحديث عن فترة الوحي لا يكون الا بعد وحي سابق، زيادة على ان مضمون الآيات المفتتح بها سورة المدثر وافتتاحها هذا، مما يؤذن بسبق خطاب اقرأ على خطاب يا ايها المدثر .

ومما ينبغي تسجيله بعد تحقيق تاريخ النزول واول ما نزل، مما تضمنه حديث عائشة، ان مكان النزول الاول هو غار حراء وبذلك نكون قد تعرفنا الطرفين الزماني والمكاني لنزول القرآن الكريم اول ما نزل .

والامر الرائع في اول القرآن نزولا هو هذا الخطاب الالهي السامي المتضمن لطلب القراءة من النبي (ص) ولفت نظره الى التفكير في خلق الانسان والاشادة بالعلم، مما يدل على ان خاصية

(1) البرهان للزركشي ج 1 ص 208 .

(2) صحيح البخاري ج 1 ص 4 .

الدعوة الاسلامية هي المعرفة، ومن ثم قال كثير من علمائنا انها اول الواجبات على المكلف، وقال آخرون ان اول الواجبات النظر الموصول الى المعرفة، وفاهيمك بهذا، على ان الحظ على العلم والتنويه به وبأهله مما طفع به القرآن الكريم والسنة النبوية حتى اصبح معلوما من الدين بالضرورة. واذا كان اول ما نزل هو قوله تعالى : اقرأ باسم ربك كما ثبت لدينا بالدليل القاطع، فان آخر ما نزل على الراجح والمعتمد هو قوله تعالى « وانقوا يوما ترجعون فيه الى الله » الآية (1) اخرجه النسائي وابن مردويه والطبري عن ابن عباس (2) وهذا يرشدنا الى ان ثمرة المعرفة هي التقوى التي تعني حسن السلوك ومحاسبة النفس، فالعلم في الاسلام ليس غاية في ذاته، ولكنه وسيلة الى تزكية النفس ونفع العباد حتى يكون الانسان خليقا بهذا المنصب الرفيع الذي اهل له منذ وجود اول فرد منه، وهو خلافة الله في ارضه، المقتضية لاعلاء منار شريعته الكفيلة بسعادة الدارين .

(6) - والقرآن معجزة الاسلام الباقية على مر الزمن، تقيم له الحجة على البشر، وتؤيد دعوته بما تأهدت به الدعوات التي سبقته من الامور الخارقة للعادة. الا ان تلك الخوارق قد انقضت بانقضاء مدتها، والقرآن ما يزال ولن يزال قائما بالحجة فاعضا بالدليل الى ان يرث الله الارض ومن عليها، وذلك لان الاسلام هو آخر الاديان ورسوله هو خاتم الرسل، فليكن كانت رسالة السماء فيما مضى من الاحقاب تتأهد بمعجزات الرسل الذين كان بعضهم يأتي في اعقاب بعض معلماء مرشدا ومشرها مجددا، لان الانسانية

(1) سورة البقرة الآية 281 .

(2) الاتقان للسيوطي ج 1 ص 27 .

كانت ما تزال في طور النمو لم تبلغ رشدًا عقلي بعد، فإنها بعد البعثة المحمدية قد دخلت في سن الاكتمال والنضج الفكري، ولم تبق بحاجة الى من يحضنها ويرعاها، ويمثل لها المعقول بالمحسوس والغائب بالحاضر، ولكن عليها ان تستعمل فكرها وتجهل النظر في آيات الله وملكوته، وفي خلقها ونفسها، لتعرف الحق بالدليل العقلي القاطع وتصل الى اليقين بالحجة والبرهان الذي لا يقبل النقض .

وهذا هو ما جاء به القرآن ودعا اليه القرآن، ففي كل عصر، وفي كل جيل، يقوم القرآن بالمهمة التي كانت تقوم بها المعجزة المحسوسة لتصديق الرسول، ولكنه معجزة معقولة تخاطب الضمير والوجدان، وتستثير الانسان لتحكيم عقله والاعتبار بما نصب الله عز وجل في الكون من آيات بينات، وشواهد واضحات، على وجوده وألوهيته ووحدانيته وصدق رسوله فيما اخبر به عنه من أحوال المعاد وما دعا اليه من عبادته والعمل بشريعته التي تحقق السعادة الابدية وتكفل للناس ما يصبون اليه من طمأنينة نفس وراحة بال .

فبين هنا كان القرآن معجزة الرسالة الغائمة (اولا) لان البشرية بما حقيقت من تطور في ميدان العلم والمعرفة، اصبحت تتطلب معجزة من قبيل ما تأخذ به من دلائل العقل وقضايا المنطق لا ما يستهوي الحس ويمتلك البصر فقط (وثانيا) لان استمرار الرسالة المحمدية بحكم ختميتها يقتضي استمرار معجزتها المؤيدة لها، ولا يمكن ان تكون المعجزة المحسوسة مستمرة والا صارت امرا عاديا، فلم يكن بد من المعجزة العقلية الباقية بقاء الدعوة، وقد كانت هي القرآن.

وهذا المعنى هو ما عبر عنه الحديث الشريف المخرج في صحيح البخاري عن ابي هريرة قال، قال رسول الله (ص) ما من الانبياء نبي الا اعطى ما مثله آمن عليه البشر، وانما كان الذي اوتيت وحيا او حاه الله الي، فأرجو ان اكون اكثرهم تابعا يوم القيامة (1)، وقد زاد الحديث على اصل المعنى شيئا آخر، وهو رجاؤه (ص) ان يكون اكثر الانبياء اتباعا يوم القيامة. ورجاء النبي محقق قطعاً، فاما بالنسبة الى الانبياء السابقين الذين انتقضت دعاتهم، فذلك مسلم، لان المومنين بهم كانوا قلة كما نطقت به الآية الكريمة في حق نوح عليه السلام، اذ تقول (وما آمن معه الا قليل) (2) ولان تعاقب الانبياء الواحد تلو الاخر يجعل اتباع كل نبي بحكم قصر المدة التي بينه وبين الذي يليه عددا قليلا. واما بالنسبة الى الاديان الباقية، فاليهودية امرها لا خفاء به، والمسيحية وان كان التعداد الرسمي لاتباعها يفوق تعداد المسلمين، الا أن واقعها ليس كذلك، فان اكثر المسيحيين اليوم ملحدون، هذا في البلاد غير الشيوعية، واما في هذه البلاد فمن الذي يقول ان سكانها مسيحيون ؟ واما قبل اليوم فان المسيحيين كانوا قلة ولم يكن سكان اوربا الا بعد عصر النهضة وتقدم الطب والعناية بالمواليد وتدبير الصحة، ولكن صعب ذلك انتشار الالحاد فلم يكن كل سكانها دائما من المتدينين

بقيت الاديان الشرقية من بوذية وغيرها، والقول فيها مثل القول في المسيحية، فانها لم يكن اتباعها الا في المصور المتأخرة وقد فشا فيهم الالحاد فشوا ظاهرا، على انها في الحقيقة

(1) البخاري ج 4 ص 188 .

(2) سورة هود الآية 40 .

اديان متعددة وليس اتباعها ملة واحدة، وان اعتبرهم التعداد الرسمي كذلك. وها هي ذى الصين الشيوعية قتلاً من الدين وتنشر الاتحاد كزميلتها روسيا، بل اذها لتتحمس للينينية اكثر من قوم لينين.

وليس يخاف ان التعداد الرسمي لاتباع الاديان في العالم يصدر من جهات غير مأمونة على الحقيقة في هذا الصدد، فبقطع النظر عما بيناه من عدم انطباق الخبر على الواقع في امر المسيحية، نجد ان عدد المسلمين يكون دائماً اقل مما هو في الحقيقة، لان تلك الجهات تعتمد ذلك قصد التهوين من شأن الاسلام والفت في عضد اتباعه، والرفع من معنويات المسيحيين واظهارهم بمظهر التفوق في كل شيء حتى في عددهم، والا فان آخر احصاء نشر في هذه السنة وهو يجعل عدد المسلمين اربعمائة مليون، في حين يجعل المسيحيين ثمانمائة مليون، هو مما يكذبه الواقع تكديبا قاطعا، فان عدد المسلمين في باكستان واندونيسيا والهند والصين وتركيا وايران والافغان، هو وحده اكثر من اربعمائة مليون، فاين بقية المسلمين في آسيا وهم العرب، وفي افريقيا ومنهم عرب كالمصريين والافارقة الشماليين، وغير عرب كأهل الاقطار الافريقية الاخرى؟ واين مسلموا اوربا بالمنتشرون بكثرة في روسيا ويوغوسلافيا وبولونيا وفلندا والبايا وغيرها من دول اوربا؟ واين مسلموا الفلبين والامريكيتين؟ على اننا ننزلنا باعتبار هذه الاديان المخالفة للاسلام اديانا حقيقية، جريا على ما يقضى به العرف والقانون. واما اذا نظرنا اليها بنظر الاسلام وهو النظر الصحيح، الذي يتوافق مع مراد الرسول (ص) في حديثه الآنف الذكر، فانها اديان معرفة عن وضعها الالهى، او اديان وثنية لا اعتداد بها في مفهوم الدين الحق،

ولن يكون لمعتنقيها صلة او سبب يربطهم برسول الله عليهم الصلاة والسلام حتى يقال انهم سيكونون من اتباعهم يوم القيامة. فان الرسل اول من يتبرأ منهم في ذلك الموقف العائل على ما جاء في القرآن (اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب (1) وقال تعالى في آية أخرى خاصة بالمسيح عليه السلام (واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ قال سبحانك ما يكون لي ان أقول ما ليس لي بحق، ان كنت قلته فقد علمته، تعلم ما مي نفسي ولا اعلم ما في نفسك، انك انت علام الغيوب، ما قلت لهم الا ما امرتني به ان اعبدوا الله ربي وربكم، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم، فلما توفيتني كنت انت الرقيب عليهم، وانت على كل شيء شهيد) (2). فخلص من هذا ان فبيننا (ص) هو كما قال: أكثر الانبياء إتباعا يوم القيامة، وذلك منسجم مع كون رسالته دائمة مستمرة ببقاء الزمن، لانها خاتمة الرسالات، ولذلك كانت معجزتها باقية دائمة وهي القرآن.

(7) وذكرى فزول القرآن في ليلة القدر من شهر رمضان، ذكرى عظيمة بل هي اعظم الذكريات على الإطلاق، لان القرآن كتاب الله أي رسالته الخالدة الى البشر التي اخرجتهم من الظلمات الى النور، واستنقذتهم من الضلال الى الهدى، وضمنت لهم سعادة الدنيا والآخرة إن هم عملوا بها ولم يتخذوها وآهم ظهريا. كان الناس يهيمون في اودية الجهل بالله فنتهم من

(1) سورة البقرة الآية 166.

(2) سورة المائدة الآية 116-117.

يجعل معه إلها آخر ومنهم عبدة أصنام، ومنهم يقول إنما هي أرحام تدفع وارض قبلع وما يهلكنا إلا الدهر، فجاء القرآن بالتوحيد، مزيفا عقيدة الشك، ومسفا عقول الوثنيين، ورد على الدهريين بما أبطل دعواهم والزمهم الحجة على وجود الله، هاك مثلا قوله في الرد على النصارى الذين يزعمون ألوهية المسيح وأمه « ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة، كان باكلان الطعام، (1) وقوله في الرد على عبدة الاصنام « اتعبدون ما تنحتون، والله خلقكم وما تعلمون » (2) وقوله في الرد على الدهريين « قتل الانسان ما اكفره، من اي شئ خلقه، من نطفة خلقة فقدره » الآية (3) .

ثم عرف المومنين بالله عز وجل تعريفا يحصل معه الاطمئنان وتنتفى عنه الوسواس، فدلهم على صفاته وافعاله ولم يغفلهم بماهيته وذاته، علما بقصورهم عن إدراك حقيقته، وكيف يحيط الفاني بالباقي ؟ « لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار، وهو اللطيف الخبير » (4) .

ومع ان نعمة المعرفة له عز وجل هي اعظم النعم، وهي التي تقطعت دونها اعناق الفلاسفة منذ القدم، فان القرآن لم يكتف بهداية البشر الى هذه النعمة بل زاد فتفضل عليهم بالارشاد الى كيفية شكرها الواجب، وذلك بأن دلهم على طريقة عبادته تعالى والتقرب اليه وطلب مرضاته، وهي ايضا الطريق التي

(1) سورة المائدة الآية 75

(2) سورة الصافات الآية 96-95.

(3) سورة عبس الآية 17-19

(4) سورة انعام الآية 108

ضل فيها من لا يحصى عددا من الحكماء المتألهين « الم، ذلك الكتاب لا ريب، فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » (1) .

وكان من اعظم مقاصد القرآن ان شرع للناس ما ينظمون به احوالهم المعاشية ويضبطون به امور الحياة الدنيا من قوانين واحكام غبرت في وجه كل ما وضع من طرف البشر في هذا الصدد لانها صانعت مصالح الفرد والجماعة، وحمت حقوق الناس جملة وتفصيلا، وكان رائدها تحقيق العدالة الاجتماعية والحرص على المساواة بين عباد الله، فانها لم تقم للانسان ميزانا الا ميزان التقوى اي الاستقامة « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » (2) كما وضع القرآن دستور الاخلاق والسلوك الحسن والمعاملة الطيبة للناس « ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى معظكم لعلمكم تذكرون، واثقوا بعهد الله اذا ما هدمتم، ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا » (3) .

وقاتي المقدمة التي حارت عقول المفكرين في حلها وهي ما بعد الموت او الحياة الآخرة، فاذا بالقرآن يكشف عنها الستار ويعطي عنها بيانات مذهشة مصحوبة بالادلة المقنعة والحجج الواضحة

(1) سورة البقرة الآية 1 - 5 .

(2) سورة الحجرات الآية 18 .

(3) سورة النحل الآية 90 - 91 .

التي تجعل الغيب واقعا والمتخيل محسوسا وتوحي بالايمان العميق بالبعث والحساب والجزاء مما خلت منه حتى الكتب السماوية الموجودة بأيدي المومنين بها، متذرها بذلك الى ايجاد وازع ديني عند كل فرد فرد يجهزه عن اقتراف الاثم وارتكاب العدوان، لانه يعلم انه مسؤول عن كل ما قدم وانه لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم . ما قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع، وان الآخرة هي دار القرار، من عمل سيئة فلا يجزي الا مثلها، ومن عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مومن فاولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ، (1) .

هكذا هدى القرآن البشر من الضلال، وانا لهم سبل الحياة الطيبة الراضية المرضية في الدنيا والآخرة، فاي خير عظيم هذا الذي انزل في ليلة القدر من شهر رمضان واي ذكرى تعادل هذه الذكرى التي اتاحت للبشر ان يسعدوا سعادة لا شقاء بعدها ابداً .

ان شهر رمضان يشرف بوقوع هذا العطاء الكريم فيه « شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » (2) وان ليلة القدر التي فضل بها شهر رمضان غيره من الشهور، ليثقل وزنها بهذه الكرامة التي خصت بها حتى لا توازيها ليلة من ليالي الدهر « انا انزلناه في ليلة القدر، وما ادراك ما ليلة القدر، ليلة القدر خير من الف شهر، تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل امر، سلام هي حتى مطلع الفجر » (3) .

(1) سورة غافر الآية 39 - 40 .

(2) سورة البقرة الآية 185 .

(3) سورة القدر الآية 1 - 5 .

وليست هذه الذكرى مما يفي بحقها كلمة قصيرة مثل هذه، ولكن استشعار عظمة المذكور الذي هو في الحقيقة منزل القرآن، والاستغراق في سبحات جماله وجلاله، والتعرض لنفحاته القدسية، والحضور بالقلب والقالب ساعة الذكرى، لا تستفاد من الكلمات قصيرة كانت او طويلة، وانما تستفاد من الايمان بالقرآن والعمل برسالة القرآن « ربنا آمننا بما انزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين » (1) .

(1) سورة آل عمران الآية 53 .

الحديث وقيمته العلمية والدينية

لعل علم الحديث رواية ودراية هو مما تتمثل فيه العبقرية الإسلامية أكثر من غيره من العلوم حتى الفلسفة وعلم الطبيعة والرياضيات. وقد يبدو هذا الرأي غريباً في بادئ النظر، ولكن لا غرابة وهذه العلوم قد قيل ان المسلمين لم يبتكروا فيها شيئاً، او كما نقلوها نقلاً مجرداً عن الامم السالفة بخلاف علم الحديث، فانه من وضع المسلمين وابتكارهم ولا يستطيع أحد ان يقول غير ذلك ولا أن يشكك فيه .

وليس هذا فقط، فإن الدارس لهذا العلم المتعمق فيه قد يطلع منه على آفاق رحبية من الابحاث المنهجية والدراسات الموضوعية في علم الاخلاق والاجتماع والقانون والسياسة والاقتصاد، فلا يكون عنده أدنى ريب في أن الحضارة الإسلامية مبناه على هذا العلم، وانها ان استفادت من معارف يونان وفارس والهند شيئاً فإنها في عناصرها النفسية انما ترجع الى كتاب الله والسنة المبينة له .

وقد جرى الناس على ان ينظروا لعلم الحديث نظرة دينية بحثاً فهم لذلك يسقطونه من الحساب اذا ذكروا العوامل التي أدت الى نهضة العالم الاسلامي، تلك النهضة التي أنتت أكلها الشهي منذ الجيل الاول الذي تلا ظهور الاسلام وما زالت تنمو وتعتظم

حتى بلغت في القرن الخامس الهجري الى ما لم تبلغه في أمة أخرى قبل ذلك . ولكنهم مخطئون في هذا النظر : ولو شاءوا ان يعرفوا الحقيقة من غير ان يكلفوا أنفسهم عنا البحث في هذا الموضوع، لاقتصروا على التفكير في ان الرسول صلوات الله عليه وسلامه لبث في قومه بعد الرسالة ثلاثا وعشرين سنة يتلو عليهم آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، وقومه هم العرب الذين يعرف الناس أنهم ليسوا بشعب غبي ولا بدائي، وهم في الوقت نفسه كانوا مكتنفين بشعوب حية ويقوم من يهود ونصارى لا يفتأون يعارضون دعوته وبوردون عليها مختلف الايرادات، فهو لم يقصر دعوته على مسائل الدين فقط، ولم يكن يعلم المسلمين أمور العبادات فحسب، بل كان يعلمهم آداب السلوك وأحكام المعاملة من البيع والشراء والصرف والحوالة والسلف والرهن وما الى ذلك، ويلقنهم أساليب الحرب وطرق الحكم، ويرشدهم الى السياسات المختلفة في علاقاتهم مع الدول الموالية والمعادية. ويتولى قسم الاموال بينهم وتوزيع الاراضي المغلة عليهم ويعقد المجالس الاستشارية كلما حز به أمر ليقبح لهم الاستبداد، ويقفهم على اسباب حياة الامم وهلاكها ليعرفوا كيف يحافظون على كيانهم اذا صار الامر اليهم من بعده، وهكذا لم يدع شاذة ولا فاذة مما به قوام الحياة ونظام الدنيا الا علمهم اياه، ألم يقل الكفار لسلمان رضي الله عنه : « لقد علمكم فيكم كل شيء » (1) ؟ بل انه في تنزيلاته معهم كان يخاطبهم بدقائق المعارف ويجيب على أسئلتهم الطبية والطبيعية بما لم ينقصه العلم حتى الان، ويصحح لهم أغلاط الاخباريين من اهل الكتاب، واغلاط عرفائهم

(1) سنن أبي داود ج 1 ص 8 ومسند أحمد ج 5 ص 487 .

في تفسير الظواهر الجوية ونحوها حتى لقد دعا ذلك اليهود ان يسألوه عن حقيقة الروح ، ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ، (1) .

إن مجرد استعراض سريع على هذا النمط، لسيرته عليه السلام كاف لمعرفة من لم يكن يعرف ان علم الحديث هو جماع المعارف الاسلامية سواء الدينية منها والدنيوية . وإذا كان هذا في عهد صلى الله عليه وسلم، فما ظنك بهذا العلم، وقد تناولته القرائح الخصبة والأفكار الناضجة، وكتب العلماء فيه من الأبحاث القيمة والدراسات الرائعة ما لا يعرف قدره إلا من وقف عليه ؟ .

وإذا كان الحديث من ذلك يطول، فلنكتف بالكلام على أصل هذا العلم والطريقة التي دون بها، والجهود التي بذلها العلماء لتمييز صحيحه من سقيم، وهذا ما يراد بعلم الحديث رواية ودراية، وهو وحده دليل ناهض على عبقرية الفكر الاسلامي الذي يغفل الباحثون عن تتبع آثاره في هذه الميادين .

أما أصل علم الحديث فهو أقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله ونومه وبقظته وحركاته وسكونه وقيامه وجوده واجتهاده وعبادته وسيرته وسراياه ومغازيه ومزاحه وجده وخطبه وأكله وشربه ومشيه وسكوته وملاطفته أهله وتأديبه فرسه وكتبه الى المسلمين والمشركين وعهوده ومواثيقه وألحاظه وأنفاسه وصفاته، مما رواه عنه من الصحابة اربعة آلاف رجل وامرأة، كما يقول الحاكم النيسابوري في كتابه المدخل الى علم الحديث (2)

(1) سورة الاسراء الآية 85 .

(2) المدخل الى علم الحديث للحاكم النيسابوري ص 12 من طبعة لندن .

صحبه نيفما وعشرين سنة بمكة قبل الهجرة، ثم بالمدينة بعد الهجرة، سوى ما حفظوا عنه من احكام الشريعة، وما سألوه عن العبادات والحلال والحرام ونحاحهموا اليه فيه، وقد نادى ذلك من الصحابة الى التابعين فمن بعدهم الى عصر التدوين .

وكان عمر بن عبد العزيز اول من امر بتدوين الحديث خوف ضياعه (1)، واكد هذا الامر ابو جعفر المنصور، فانتدب لذلك ابن شهاب الزهري، وكان سابق الحلبة، إلا ان عمله انما كان تدويناً مجرداً من غير تبويب ولا ترتيب، واما الجمع مرتباً على الابواب، فوقع في نصف القرن الثاني، وكان ممن قام بذلك ابن جريج بمكة، ومالك او ابن إسحاق بالمدينة، وهشيم بواسط ومعمار باليمن، وابن المبارك بخراسان، والربيع بن صبيح او سعيد بن ابي عروبة او حماد بن سلمة بالبصرة، وسفيان الثوري بالكوفة، والاوزاعي بالشام وجريير بن عبد الحميد بالرى (2).

وكان النبي ألف مالك هو كتابه الموطأ، ولعله الكتاب الوحيد الذي وصلنا بالرواية الصحيحة من تأليف هذا العصر، ولذلك نتخذة نموذجاً للطريقة التي دون بها علم الحديث في اول الامر.

والموطأ وان لم يكن في الواقع كتاب حديث مجرد لانه يحتوي على كثير من الفقه والاستنباط وأقوال السلف ومذاهب الصحابة، الا أنه فيما اشتمل عليه من الحديث يعطينا فكرة صادقة عن الجهد الذي بذله الامام مالك في تعريي الاحاديث الصحيحة، وعدم الرواية الا عن الاعلام الا ثبات الثقات، فقد قيل انه لما ألفه أولاً كان يشتمل على نحو عشرة آلاف حديث، ولم يزل ينتقى منه

(1) صحيح البخاري ج 1 ص 24 .

(2) تدريس الراوي للسيوطي ص 24 .

ويختار حتى لم يبق منه الا نحو ألف حديث، وهذه النسبة وهي واحد من عشرة أو قل عشرة من مائة هي التي عمل عليها تقريباً جل المؤلفين في الحديث بعد ذلك، لا سيما أئمة الصحيح بل انها لتنزل عند بعضهم الى أقل من ذلك بكثير مع العلم بأنها نسبة الى ما ثبت عندهم من الاحاديث ووقع لهم فيه اشتباه ما، لا أنها نسبة الى محفوظهم فإن هذا كثير يكاد لا يسلم به أهل هذا العصر الذين ضعفت أو انعدمت فيهم بالمرّة ملكة الحفظ، فاهيك بما قيل عن الامام أحمد بن حنبل من انه كان يحفظ مليون حديث (1).

ورقّب الامام مالك كتابه الموطأ على الابواب والمسائل، فهو يخرج الحديث الشاهد في أول الباب أو في أثنائه ثم يخلل الباب بالآثار والاقوال الثابتة عن الصحابة وأئمة السلف في الموضوع وبأني بباب اسمه الجامع يروي فيه متفرقات من الباب لا تصلح ان تفرد بترجمة، وقد ختم الكتاب كذلك بباب واسع سماه الجامع وضمنه احاديث في السنن والاخلاق وأدب السلوك ونحو ذلك قيل وهو اول من ابتكر هذا الصنيع في التأليف اي جمع المسائل المتفرقة في باب اسمه الجامع وعلى ما فرى فإن طريقة الامام مالك في تأليفه للموطأ برغم قدم الزمن هي من احسن الطرق التي ألفت عليها كتب السنة فيما بعد واتبعها معظم المحدثين الى المائة الثالثة .

(1) وفيات الاعيان لابن خلكان ج 1 ص 17 وفي خصائص المسند المحافظ المديني: كتب أبي عشرة آلاف ألف حديث ولم يكتب سوادا في بياض الا قد حفظه . (الخصائص ص 10 طبعة الخانجي) ومعلوم ان المراد ما يشمل طرق الحديث ورواياته والآثار عن الصحابة وما الى ذلك .

وفي المائة الثالثة نشطت حركة جمع الحديث نشاطاً كبيراً وتناولت مختلف وجوه العمل لتأليفه وتبويبه وتخليصه من الزيف والعلّة، فألف البخاري جامعه الذي هو أول كتاب ألف في الصحيح وكذا مسلم صاحب ثاني الصحيحين، وألف بقية أصحاب الكتب الستة كتبهم وهي التي تلقاها المسلمون بالقبول، ويقول السيوطي إن الحديث إذا أخرج أحده هؤلاء المؤلفين الستة فليروه الإنسان مطمئناً إليه (1).

وكان التأليف في هذا العصر على أوضاع مختلفة منها ما بقي محافظاً على وضعه الأول الذي كان أكثر العمل عليه عند بدء التأليف وهو جمع احاديث كل راو على حدة وإن اختلفت موضوعاتها وهذا ما يسمى بالمسند وهو النهج الذي تبعه الامام احمد بن حنبل في كتابه العظيم المسمى بمسند احمد، ومنها ما ألف على الابواب والمسائل، وهي طريقة مالک في الموطأ، ومنه ما يكون عاماً شاملاً لاحاديث العبادات والاعادات والاحكام والحكم والتواريخ والرفائق وغير ذلك وهو المسمى بالجامع ومنه الجامع الصحيح للامام البخاري وغيره. ومنه ما يقتصر على السنن والاحكام كسنن ابي داود، ومنه ما يخص موضوعاً بعينه او مسألة واحدة فقط كشعب اليمان المبهقي والقراءة في الصلاة البخاري الى غير ذلك .

واستمر هذا النشاط وخلص الى القرون التالية فاتخذ اشكالا وانواعاً من العناية بالحديث، سواء من حيث الرواية والجمع، او من حيث الشرح والفهم والتفريع والاستنباط، وفي هذا الامر يقال حدث عن البحر ولا حرج .

(1) تدريب الراوي ص 66 .

وعلى كل حال فقد صعب عملية الجمع والتدوين عملية الانتقاء والاختيار، والجهود التي بذلها العلماء في هذا الصدد، لا يوجد لها نظير عند غير المسلمين، ومن ثم ليل ان الاسناد من خصائص هذه الامة (1)، اي تتبع رواية الحديث واحداً فواحداً، والبحث عن حالهم من الحفظ والضبط والعدالة الى النبي (ص)، قال ابن حزم نقل الثقة حتى يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم مع الاتصال شيء خصص به المسلمون دون جميع الملل، اما مع الارسال والاعضال (2)، فيوجد في اليهود، لكن لا يقربون به من موسى عليه السلام قربنا من نبينا بل يقفون حيث يكون بينهم وبينه اكثر من ثلاثين نفساً، واما النصارى فليس عندهم من صفة هذا النقل إلا تحريم الطلاق (3) .

ولا تغفل عما في هذه الخصيصة من ميزة للدين الاسلامي لا يشاركه فيها غيره من الاديان، وهي ثبوته بالنص القاطع والرواية الصحيحة، فلا جرم ان يقول عبد الله بن المبارك «الاسناد من الدين، ولولا الاسناد لقال من شاء ما شاء» (4)، وقواه هذا دليل على ان القوم كانوا في تمييزهم للحديث الصحيح من السقيم يتبرءون لدينهم كما كانوا يتحرون المنهج العاسي الصحيح.

(1) شرح الطرفة لابن عبد القادر الفاسي، الملزمة 11 ص 6 طبع فاس بهامش حاشية ابن عبد السلام كنون .

(2) اي عدم الاتصال وسقوط عدد من الرواة في السند، والمرسل في الاصطلاح الحديث الذي يرويه التابعي مرفوعاً الى النبي (ص) من غير ذكر الصحابي والمعضل الذي سقط من سنده اثنان فصاعداً من الرواة .

(3) حاشية الطرفة لابن عبد السلام كنون ملزمة 11 ص 6 طبع فاس .

(4) صحيح مسلم باب في ان الاسناد من الدين ج ل ص 8 .

ويروي عن عبد الله بن المبارك ايضا انه كان يقول :
« بيننا وبين القوم القوائم » (1) اي الاسناد، وهذا يبين طريقتهم
العملية في نقد الرجال، فانهم جعلوا قوائم باسماء الرواة ورتبوها
بحسب القوة والضعف ترتيبا يكون هو الحكم في قبول الحديث
اورده . فاذا لم يعرف حال الراوي ترك الحديث وكذا ان
سقط من سنده احد الرواة وان كان في السند ثقات، فقد جاء
في مقدمة الصحيح لمسلم بن الحجاج : « وقال محمد (يعني ابن
عبد الله بن قهزاد) سمعت ابا اسحاق بن ابراهيم بن عيسى
الطالقاني قال : قلت لعبد الله بن المبارك يا ابا عبد الرحمن
الحديث الذي جاء ان من البر بعد البر ان تصلي لابويك مع
صلائك، وتصوم لهما مع صومك، فقال عبد الله يا ابا اسحاق عمن
هذا ؟ قال : قلت له هذا من حديث شهاب بن خراش، فقال
ثقة عمن ؟ قال : قلت عن الحجاج بن دينار قال ثقة عمن ؟
قلت : قال رسول الله (ص) قال : يا ابا اسحاق ان بين الحجاج
ابن دينار وبين النبي (ص)، مفاوز تنقطع فيها اعناق المطي،
ولكن ليس في الصدقة اختلاف » .

ويحسن بنا ان نورد نبذة في هذا الشأن من مقدمة الامام
مسلم صاحب ثاني كتاب في الصحيح، وهي على اقتضاها تقفنا
على لطف مسلك القوم في هذه السبل الوعرة، قال رحمه الله :
« ثم انا مبتدون في تخريج ما سألت وتأليفه على شريطة
سوف اذكرها لك، وهو انا نعهد الى جملة ما اسند في الاخبار عن
رسول الله (ص) فنقسمها على ثلاثة اقسام. وثلاث طبقات من
الناس على غير تكرار . . . »

(1) المصدر نفسه .

فأما القسم الاول فانا نتوخى أن نقدم الاخبار التي هي
اسلم من العيوب من غيرها وأنقى من ان يكون ناقلوها اهل
استقامة في الحديث واتقان لما نقلوا، لم يوجد في روايتهم اختلاف
شديد ولا تخليط فاحش، كما قد عثر فيه على كثير من المحدثين
وبان ذلك في حديثهم، فإذا نحن تقصينا اخبار هذا الصنف من
الناس، اتبعناها اخباراً يقع في اسانيدنا بعض من ليس بالموصوف
بالحفظ والاتقان كالصنف المقدم قبلهم. على انهم وان كانوا
فيما وصفنا دونهم، فان اسم الستر والصدق وتعاطي العلم شملهم
كعطاء ابن السائب ويزيد بن ابي زياد وليث بن ابي سليم
وأضربهم من حمال الآثار ونقال الاخبار. فهم وان كانوا بما
وصفنا من العلم والستر عند اهل العلم معروفين، فغيرهم من اقرانهم
ممن عندهم ما ذكرنا من الاتقان والاستقامة في الرواية يفضلونهم
في الحال والمرتبة لان هذا عند اهل العلم درجة رفيعة وخصلة سنية.

ألا ترى انك اذا وزنت هؤلاء الثلاثة الذين سميناهم عطاء
ويزيد وليثاً بمنصور بن المعتمر وسليمان الاعمش واسماعيل بن
ابي خالد في اتقان الحديث والاستقامة فيه وجدتهم مباينين لهم
لا يدانونهم - لا شك - عند اهل العلم بالحديث في ذلك للذي
استفاض عندهم من صحة حفظ منصور والاعمش واسماعيل واتقانهم
لحديثهم. وانهم لم يعرفوا مثل ذلك من عطاء ويزيد وليث، وفي
مثل مجرى هؤلاء اذا وزنت بين الاقران كابن عون وايوب
السختياني مع عون بن ابي جميلة واشعث الحمراني وهما صاحبا
الحسن وابن سيرين، كما ان ابن عون وايوب صاحباهما الا ان
البون بينهما وبين هذين بعيد في كمال الفضل وصحة النقل.
وان كان عوف واشعث غير مدفوعين عن صدق وامانة عند اهل

العلم، ولكن الحال ما وصفنا من المنزلة عند اهل العلم. وانما مثلنا هؤلاء في التسمية ليكون تمثيلهم سمة يصدر عن فهمها من غيبى عليه طريق اهل العلم في ترتيب امله فيه. فلا يقصر بالرجل العالي القدر عن درجته ولا يرفع متضع القدر في العلم فوق مرتبته. وقد ذكر عن عائشة رضي الله عنها انها قالت امرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فنزل الناس منازلهم، مع ما نطق به القرآن من قول الله تعالى (وفوق كل ذي علم عليم) (1) .

فعلى ما ذكرنا من الوجوه نؤلف ما سألت من الاخبار عن رسول الله (ص)، فأما ما كان منها عن قوم هم عند اهل الحديث متهمون او عند الاكثر منهم فلسنا فتشغل بتخريج حديثهم كعبد الله بن مسور ابي جعفر المدائني وعمر بن خالد وعبد القدوس الشامي ومحمد بن سعيد المصلوب وغيث بن ابراهيم وسليمان ابن عمر وأبي داود النخعي واشباههم ممن اتهم بوضع الاحاديث وتوليد الاخبار، وكذلك من الغالب على حديثه المنكر او الغلط، امسكنا ايضاً عن حديثهم .

وعلاوة المنكر في حديث المحدث اذا ما عرضت روايته للحديث على رواية غيره من اهل الحفظ والرضى، خالفت روايته روايتهم او لم تكد توافقها، فاذا كان الاغلب من حديثه كذلك، كان معجور الحديث غير مقبوله ولا مستعمله .

والذي نعرف من مذهبهم في قبول ما يتفرد به المحدث من الحديث ان يكون قد شارك الثقات من اهل العلم والحفظ في بعض ما رووا وأمعن في ذلك على الموافقة لهم، فاذا وجد كذلك ثم زاد بعد ذلك شيئاً ليس عند اصحابه قبلت زيادته .

(1) صورة يوسف، الآية 76.

فأما من تراه يعمد لمثل الزهرى في جلالة وكثرة اصحابه الحفاظ المتقنين لحديثه وحديث غيره. او لمثل هشام بن عروة وحديثهما عند اهل العلم مبسوط مشترك قد نقل اصحابهما عنهما حديثهما على الاتفاق منهم في اكثره فهروي عنهما او عن احدهما العدد من الحديث مما لا يعرفه احد من اصحابهما وليس ممن قد شاركهم في الصحيح مما عندهم، فغير جائز قبول هذا الضرب من الناس والله اعلم» (1).

فهذا منهج علمي مضبوط لا يقل في دقته وتحقيقه عن مناهج علماء النقد المحدثين ان لم يفقهها راييس هو مما استوحى من مصدر اجنبي ولا مما استورد من بلاد الخارج وافما هو حصيلة الفكر العربي السليم ونتيجة الاجتهاد الاسلامي الغالص. ولم يملك المستشرق جوينبول Juynboll كاتب مادة الحديث في دائرة المعارف الاسلامية نفسه من ان يظهر الاعجاب بالجهل الذي بذله المسلمون في التحري لصحة احاديث نبهم، على ما له من اغلاط كثيرة في هذه المادة، اذ يقول: «لا يعد الحديث صحيحاً في نظر المسلمين الا اذا تتابعت سلسلة الاسناد من غير انقطاع، وكانت تتألف من افراد يوثق بروايتهم وتحقق الاسناد جعل علماء المسلمين يقتلون الامر بحثاً، ولم يكتفوا بتحقيق اسماء الرجال واحوالهم لمعرفة الوقت الذي عاشوا فيه واحوال معاشهم، ومكان وجودهم، ومن منهم هان على معرفة شخصية بالآخر، بل فحصوا ايضاً عن قيمة المحدث صدقاً وكذباً وعن مقدار تحريره للدقة والامانة في نقل المتون ليحكموا اي الرواة كان ثقة في روايته» الخ (2).

(1) صحيح مسلم ج 1 ص 3 - 4.

(2) دائرة المعارف الاسلامية، الترجمة العربية المجلد 7 ص 335.

وفوه الاستاد مادم متز في كتابه الحضارة الاسلاميه في القرن الرابع الهجري بالدور العظيم الذي قام به علماء الحديث في تدوين السنة النبوية وخدمتها فقال : «وقد اعتنى نقاد الحديث منذ اول الامر بمعرفة رجال الحديث وضبط اسمائهم والحكم عليهم بألهم ثقات او ضعفاء، ثم نظروا في الاساس الذي يبنني عليه هذا الحكم اعنى الصفات التي يجب توفرها في المحدث الثقة وهو ما يعرف بالجرح والتعديل . . . وقد ادت بهم حاجتهم الى السند المتصل ان يتجاوزوا البحث في حياة الرواة والحكم عليهم الى عمل تاريخ كامل لهم، وهكذا وجدت تواريخ القرن الثالث الهجري مثل تاريخ البخاري وطبقات ابن سعد، الخ (1) .

وقد اثر هذا المنهج بدقته وضبطه على العقيلة العربية فظهر مفعوله في علوم اخرى كاللغة والادب والتاريخ، وابن قتيبة الذي يعد من اوائل نقاد الادب والشعر خاصة بما كتبه في مقدمة كتابه الشعر والشعراء لم يكن الا متأثراً بمعارفة الحديثية وال اخبارية ومنهج النقد عند الحديثيين الذين هو منهم واليه . بل اني لا اشك في استفادة ابن خلدون من منهج اهل الحديث واستمداده من طرق تقدم فيما وضعه من قواعد لعلم الاجتماع وفلسفة التاريخ. ان الامثلة التي اعطاها مسلم بن الحجاج لمعرفة المنكر من الحديث هي بعضها المقاييس التي طبقها ابن خلدون لتمييز الزائف من الصحيح من اخبار المؤرخين. وهكذا نرى ان علم الحديث يبسط جناحه على الثقافة الاسلامية لا بمتمنه وروايته فقط بل وباصطلاحه وما يسمى عند علمائه بعلم الحديث دراية ايضاً.

(1) الحضارة الاسلامية لادم متز الترجمة العربية لمحمد عبيد العادي أبو ريدة ج 4 ص 319 .

ومن المعلوم ان هذا لم يكن هو القصد الاول من جمع الحديث وتدوينه وفقده، فانه انما جاء عرضا وكان فتحا من فتوحات هذا العلم المبارك الذي استوعب ضروب النشاط الفكري عند المسلمين، وحفزهم من اول يوم الى اقتحام سبل المعرفة وطلب العلم ولو بالصين (1)، فوجدت تلك النهضة العلمية الكبرى التي عمت البلاد الاسلامية من مشرقها الى مغربها، والتي لم تنفصل في اساسها قط عن مدارك القرآن الكريم والحديث الشريف، وهو ما يفسر لنا حرص اعلام الفكر الاسلامي على الاخذ بعظم من هذا العلم وتمسكهم عبر التاريخ بالمشاركة فيه، حتى ولو كانوا من الفلاسفة والاطباء والفلكيين امثال ابن سينا وابن رشد ونصير الدين الطوسي وعبد اللطيف البغدادي وغيرهم، بل لقد قيل بتلازم علم الحديث وعلم النبات، لانهما معا مما يدرك بالرحلة ولا يبلغ احد فيهما شأوا إلا بالتنقل في البلاد.

نعم لم يكن هذا هو القصد الاول من حركة تدوين الحديث، وإنما كان هذا القصد هو جمع الحديث خوف ضياعه، فقد جاء فيما كتب به عمر بن عبد العزيز الى ابي بكر بن حزم في الموضوع ان قال له : « انظر ما كان من حديث رسول الله (ص) فاكتبه فاني خفت دروس العلم وذهاب العلماء » (2).

والواقع انها كانت حركة انقاذ للعلم الاسلامي الذي لم يكن عند القوم غير مهمل. وكانوا انما يعتمدون فيه على الحفظ والاستظهار، فلما أسرع الموت الى رجاله ونقلته، خاف الخليفة

(1) يروي في هذا المعنى حديث اطلبوا العلم ولو بالصين وهو على شتهاره لا اصل له.

(2) صحيح البخاري ج 1 ص 24.

العادل من جراء ذلك على هذا العلم ما خافه الخليفة الاول على القرآن من الضياع لما استحر القتل في الصحابة وامر بجمع المصحف . فكذلك امر عمر بن عبد العزيز بكتابة الحديث وهو بعد القرآن منتهى علم المسلمين إذ ذاك، فجدوا في الامر واجتهدوا وقاموا بما لم تقم به امة في العمل على حفظ كلام نبيها واخباره واحواله، ودونوا ذلك واقتبسوا منه الحكم والاحكام والمعارف والاسرار، ولم ينظروا اليه قط تلك النظرة الضيقة التي تحصره في حيز الفكر الديني، بل اعتبروه ثراء علميا طائلا درسوه وتعمقوا فيه مدة قرن من الزمن، حتى إذا اتسعت امامهم آفاق المعرفة وفقلت اليهم علوم الاوائل من فلسفة وطبيعة ورياضيات، لم يزدتهم ذلك إلا توسعا فيه وتفريعا لاصوله وتأسيسا لقواعده، فانهم لم يقولوا في يوم من الايام بالفصل بين العلم والدين، ولا رجحوا كفة المادة على الروح، لان الدين هو الاسلام، والاسلام والعلم لا يختلفان، ولان المادة كانت دائما وسيلتهم الى السمو بالروح، والوسائل عندهم تعطي حكم المقاصد، فلذلك كافوا في المزوجة بين المعارف الالهية والعلوم الكونية كالطائر بين جناحين لا يميل مع احدهما إلا كان مهددا بالوقوع .

وهكذا كان عملهم في تدوين الحديث مبادرة علمية بالمعنى العام الذي يشمل علوم الحياة بأجمعها، مما وصل اليه اجتهداتهم ووعته مقولهم، ولا يختص ديننا ولا علما كما قلنا، حتى بدأ عهد الترجمة ونشأت تلك النهضة العلمية الكبرى التي كان علم الحديث من روادها الداعين اليها والمشجعين عليها، فتميزت العلوم حينئذ، وسار كل في طريقه من غير تقاطع ولا تدابر، ولا تبجح جهة، بأن ما معها هو العلم دون سواه، بل ان الاعتراف

المتبادل وروح التعاون بين الفكر الفلسفي والديني، كانا هما التقليد المتبع الذي أدى الى وجود فلسفة اسلامية متميزة عن الفلسفة العامة، هي (الرشدية) التي اثبتت لأول مرة في تاريخ الفكر الانساني عدم تعارض العلم والدين، على ما نجده عند صاحبها ابي الوائيد بن رشد في كتابه فصل المقال فيما بين الحكمة والشرعية من الاتصال وغيره من كتبه الفلسفية، والرشدية هي التي تولدت عنها الميمونية نسبة الى موسى بن ميون الحكيم الاسرائيلي الذي اهتبلها للاحتجاج لليهودية. ثم تأدت من بعد الى توماس الاكويني، وهو من اكبر فلاسفة القرون الوسطى ورجال الدين في الغرب، فوجد فيها اعظم سند لدعم الايمان المسيحي من طريق العلم، ولا يفهم من هذا ان الحياة الدينية المحض، وما يتعلق بها من الحديث، لم تحظ بعناية خاصة من خلف الامة في حركة لتدوين، ولم تكن حافظاً لهم على ما قاموا به في هذا الشأن من عمل جبار، كلا فاننا إنما عنيينا بابرار الناحية العلمية، وما كان لها من السيطرة على المسلمين في تلك الحركة، لانها كثيراً ما تخفي على الباحثين، اولا يعيرونها الاهتمام اللازم، وإلا فان الحديث المتعلق بالواجبات والسنن والشعائر الدينية على العموم. كان من اول ما اعتنى المسلمون بحفظه وروايته، سواء في ذلك الصحابة والتابعون فمن بعدهم، بل ان من الصحابة من تعاطى كتابته كعبد الله بن عمرو بن العاص، وذلك باذن من النبي (ص)، فسبق عهد التدوين بزهاء قرن كامل. وفي هذا العهد ايضا كان الباعث الديني من اعظم ما حمل أئمة الحديث وحفاظه على جمعه وكتابته، الا ترى ان منهم من خص بعض كتبه بالمسائل والقضايا الدينية، وقد ألمعنا الى ذلك فيما سبق، ككتاب القراءة في الصلاة للبخاري، وكتاب

شعب الايمان للبيهقي، وكتاب السنن لابي داود، وان كان هذا جامعا بين احكام العبادات والمعاملات .

ولم يكن ليسع المسلمين غير ذلك، وهم يقرأون في الكتاب العزيز « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » (1)، ويسمونه (ص) يقول : « الا اني اوتيت القرآن ومثله معه » (2)، فالقرآن وان كان كتاب عقيدة وشرعة معا، وذلك مما امتاز به على الكتب السماوية الاخرى، الا ان كثيرا من الاحكام لم تفصل فيه تفصيلا، حيث ان مهمته الاولى كانت وما تزال هي ان يحبب الايمان الى الناس ويزينه في قلوبهم ويكره اليهم الكفر والفسوق والعصيان، وما زاد على ذلك فانما هو مما ثبت به الذين آمنوا ويشق لهم الطريق الى المعرفة بالله وعبادته على نحو ما كان الرسول (ص) يفعل كما ترشد اليه الآية الكريمة « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » (3) . لهذا شعر الصحابة منذ فجر الاسلام ومن اتى بعدهم من المؤمنين بالحاجة الى السنة التي تبين لهم ما اجمل في القرآن وما لم يذكر فيه تفصيلا من احكام العبادات والمعاملات.

«انظر الى الايمان جاء في القرآن، الأمر به والزام كل واحد ان يملأ منه قلبه، ثم بينته السنة بقوله (ص) الايمان ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره » (4)، كذلك الاسلام والاحسان. وانظر الى الصلاة عماد الدين، اوجبها القرآن

(1) سورة النحل الآية 44 .

(2) سنن ابي داود ج ٣ ص 261 ومسند احمد ج 4 ص 181 .

(3) سورة آل عمران الآية 31 .

(4) البخاري ج ١ ص 12 .

من غير بيان، وبينت السنة عدد الصلوات والركعات وكيفيتها وشروطها واصلاح ما يقع فيه الخلل منها، ووضعت اوقاتها وكيف العمل في فوائدها، وما ذكر في القرآن إلا ما هو اجمال من ذلك كقوله تعالى : « إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ، الآية (1) . ففي القرآن بيان شرط وهو الطهارة المائية ثم الترابية . وأشار الى شرط ستر العورة بقوله : « خذوا زينتكم عند كل مسجد » (2)، وإلى شرط استقبال القبلة بقوله : « فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » (3)، ولكن هناك تفاصيل بينها السنة، ثم اشار القرآن الى اوقاتها بقوله تعالى : « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون، وله الحمد في السموات والارض وعشيا وحين تظهرون » (4)، ولكن السنة بينت الاوقات بالبيان الشافي بحديث بريدة وحديث ابن عمرو (5) في الصحيح وغيرهما، وأشار القرآن الى كيفيتها بقوله : « اركعوا واسجدوا » (6)، وقوله : « وقوموا لله قانتين » (7)، ولكن السنة هي التي استوفت فقال (ص) : صلوا كما رأيتموني اصلي (8)، وروى لنا ابو هريرة ووائل بن حجر ومالك بن الحويرث وابو حميد الساعدي وغيرهم كيفية

(1) المائدة 6 .

(2) الامراف 31 .

(3) البقرة 144 .

(4) الروم 17 - 18 .

(5) ينظر حديثا بريدة وابن عمرو برواياتهما المختلفة في مسلم ج ل ص 291 .

(6) الحج 76 .

(7) البقرة 238 .

(8) البخاري ج ل ص 85 .

صلاته عليه السلام (1)، وعلينا منها ما هو واجب وما لا يجب. وهكذا الزكاة اشار القرآن الى وجوبها بقوله : « والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » (2)، ولكن من اين علم القدر الواجب ؟ علم من السنة، قال عليه السلام فيما سقت العيون او كان عثرها (3) العشر، وما سقى بالنضح نصف العشر (4)، وقال : « وفي الركاز الخمس » (5)، وبينت السنة قدر النصاب، قال عليه السلام : « ليس فيما دون خمسة اوسق من التمر صدقة، وليس فيما دون خمس اواق من الورق صدقة، وليس فيما دون خمس ذود في الابل صدقة » (6).

وهكذا الصوم اوجب الله علينا في القرآن صوم شهر رمضان، وبينت السنة ان المراد الشهر القمري الذي يكون ثلاثين ويكون تسعة وعشرين، وامرنا ان نصوم لرؤية الهلال ونفطر لرؤيته، وان من افطر عامداً لغير عذر تجب عليه الكفارة الى غير ذلك. وهكذا الحج اوجب الله في القرآن الحج على من استطاع، وبين اركانه فأشار الى الاحرام بقوله تعالى : « ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله » الى آخر الآية (7)، والى وقوف عرفة « فإذا أفضتم من عرفات » (8)، وبين السعي والطواف بقوله :

-
- 1 (احاديث ابي هريرة ومن ذكر معه في وصف الصلاة تجدها متفرقة في ابواب الصلاة من صحيح البخاري ومسلم وفي ابي داود والجماعة .
 - 2 (المصارج 24 - 25 .
 - 3 (بفتحين اي ما يشرب بهروقه لانه عثر على الماء .
 - 4 (البخاري ج 1 ص 190 .
 - 5 (البخاري ج 1 ص 192 والركاز دفن الجاهلي .
 - 6 (البخاري ج 4 ص 190 .
 - 7 (البقرة 196 .
 - 8 (البقرة 198 .

« إن الصفا والمروة من شعائر الله » (1)، وبقوله : « وطهر بيتي للطائفين والقائمين » (2)، وبينت السنة كيفية الاحرام ومنوعاته وحدود عرفة ووقت الوقوف فيه وكيفية السعي والطواف وعدد الاشواط الى غير ذلك . وقد اجمله عليه السلام بقوله : « خذوا عني منا سككم » (8)، وبينت الاحاديث النبوية التي رواها الصحابة الذين عاينوا حجه تفاصيل ذلك كابن عباس وابن عمرو وغيرهما (4) .

فهذه بعض الاحكام مما يتعلق بالقواعد الخمس فقط، إنما استفيدت من السنة وأن ذكرت اصولها في القرآن، ولكن ذلك لا يقتضي عن التفاصيل التي اشرنا اليها ومثلها ما يتعلق بأبواب المعاملات وهو كثير جداً . فلا جرم أن السنة قولية كانت او فعلية عليها مدار مناط التشريع بمد القرآن، وهي اما مبينة له كما رأينا وذلك هو الغالب، واما مستقلة بالتشريع كما في زكاة الفطر وصلاة الوتر من احكام العبادات، وكما في الحكم بالشاهد واليمين، وميراث الجدة من احكام المعاملات، وقد قال الله عز وجل فيما هو من هذا القبيل « وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا » (5) .

(1) البقرة- 158 .

(2) الحج 27 .

(3) مسلم ج 3 ص 592 .

(4) حديثهما مقطع في البخاري في ابواب الحج واطول حديث واوعبه في وصف حجه (ص) هو حديث جابر وتنتظر رواياته في مسلم .

(5) سورة الحشر الآية 7 .

وبهذا نعرف قيمة الحديث بالنسبة الى الدين، كما عرفناها بالنسبة الى العلم فالعجب، ممن يثير الشبهات حول حجيته ورجاله وسنده، وقد رأينا فيما يرجع الى السند كيف ان عمل المحدثين في التحري له والتثبت منه واخضاعه للنقد العلمي التحليلي، كان مثار الاعجاب حتى من الاجانب عن الاسلام، واتخذ علماء آخرون من غير المحدثين كالمؤرخين والادباء ميزانا لنقد الاخبار وحياة المجتمع، فما بعد هذه الدقة في وزن الحديث وتمييزه غاية تدرك، والذي لا يرضيه الاغنياء في هذا الامر لا يرضيه شيء .

وأما حجة الحديث فلسنا بقاتلين فيها شيئا مما كان يقوله بعض المتطعين من انها ظنية الثبوت وخبر احاد، فان المنكرين اليوم ليسوا من ذلك بسبيل، وانما هم ممن تحكمت فيهم الاهواء وقالوا بالتقليد من غير علم ولا هدى، فنسألهم عما ذكرنا، من الاحكام التي لم تستند إلا من السنة، وهي مما لا نزاع فيه بين المسلمين كعدد ركعات الصلاة والصلوات الواجبة والمندوبة، والنصاب في الزكاة والقدر المخرج منه وما الى ذلك، اهي من الدين ام لا ؟ فاذا قالوا هي من الدين قطعاً فقد اثبتوا حجة الحديث فيها، لانها لم تشرع إلا عن طريقه ويلزمهم ان يقولوا بحجيته في غيرها، وان قالوا انها ليست من الدين فلا شك انهم يتكلمون عن دين آخر غير دين الاسلام . وليس الحديث حجة إلا عند المسلمين الذين يصلون ويصومون على ما ثبت عندهم من قول الرسول (ص) وفعله في ذلك، وهو السنة، وهي الحديث المروي بطريق التواتر او خبر الآحاد صحيحاً او حسناً .

ولعلنا وقد بينا قيمة الحديث العلمية والدينية، ورفعنا من شأن رجاله بما هو معقول ومقبول، وليس من قبيل المناقب ولا الكرامات، يصح لنا ان ننبه على الاحاديث الموضوعة والضعيفة

جداً ونحذر منها، فإن أكثرها مما يجني على سمعة الاسلام ويضيف حقيقته، وهي في الواقع التي تجعل بعض من لا علم له من ضعفه الايمان بتشككون في الاحاديث كلها ويردونها ولا يقبلون الاحتجاج بها، وهو خطأ واضح لان وجود الزيف في بعض النقول كلها، وقد وقع الالتحال في النصوص الادبية من شعر ونثر، ولم يجعل ذلك احداً يرفض الادب كله، ويقول انه منتحل لا يصح نسبته الى اهله .

وقد ألف العلماء في الحديث الموضوع كتباً قيمة تبينه بأعيانه فضلاً عما وضعوه من القواعد لمعرفة الوضع في الحديث ومن تلك الكتب موضوعات ابن الجوزي والآلعي المصنوعة للسيوطي والدرر المنتشرة له وقيميز الطيب من الخبيث لابن الديبع وموضوعات على القاريء المعروف بابن سلطان والغماز على اللماز للمسيد السمردي وما ذكره المجد الفيروزيادي في آخر كتابه سفر السعادة ونظمه الشمس المقدسي في أرجوزة طويلة مفيدة، والفوائد المجموعة للشوكائي، وأسنى المطالب لمحمد الحوت وهذه الكتب كلها مطبوعة بمتناول الجميع على أن ثم أحاديث لم تنزل لدرجة الوضع وانما دخل سندها أو متنها علة قد لا تقدر في صحتها، ولكن معرفة ذلك مما يخفى الا على جهابة النقاد. وقد ألف العلماء في هذه العلل أيضاً تأليف مفيدة جداً ومما هو مطبوع منها كتاب علل الحديث لابن أبي حاتم أورد فيه زهاء ثلاثة آلاف حديث معلول مبيناً وجه علته بما لا مزيد عليه في الاقتان .

وهناك فروع من الحديث الذي يبدو لاول وهلة كأنه متناقض مع ما هو معروف من النصوص القرآنية أو الاحاديث الاخرى، فيسارع المرء الى انكاره وهو المسمى بمختلف الحديث وهذا

النوع قد يقع الناس منه في مزالق شنيعة ولذلك لا ينبغي الاستعجال بالحكم عليه الا بعد الدراسة المستأنية والاحاطة بالموضوع من جميع جوانبه، ومن أحسن الكتب الموضوعة فيه وأجمعها كتاب تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة وهو مطبوع بحسن الرجوع اليه للتمقه في الحديث وحصول الطمأنينة له .

وبعد، فإن أحسن الحديث كتاب الله عز وجل، وأفضل الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم (1) .

وما شرب الايمان الا فؤاد من بأخبار خير الخلق قد ملأ الاذنا (2)
وما أحسن ما قال ابو حيان التوحيدي في الامتاع والموانسة،
وقد ذكر ان الخلافة ما آلت الى بني هاشم حتى استحالت
أعجية كسروية :

« هذا الربيع وهو حاجب المنصور يضرب من شمت الخليفة
عند العطسة، فيشكى ذلك الى ابي جعفر المنصور، فيقول اصاب
الرجل السنة واخطأ الادب وهذا هو الجهل كأنه لا يعلم ان
السنة اشرف من الادب، بل الادب كله في السنة، وهي الجامعة
للادب النبوي والامر الالهي، ولكن لما غلبت عليهم العزة ودخلت
النعرة في آفاقهم وظهرت الخنزوانة بينهم، سموا آيين العجم ادبا
وقدوه على السنة التي هي ذمرة النبوة » (8) .

(1) البخاري كتاب الادب، باب الهدى الصالح ج 4 ص 48 .

(2) انشده في أقرب المسالك على الوطأ .

(3) الامتاع والموانسة ج 2 ص 76 .

الدين والشباب

يضع هذا العنوان بين ايدينا مشكلا شائكا وخطيرا ومتشعب النواحي، بحيث لا يمكن ان يحيط به حديث يلتقى في جلسة مهما تطل .

اما كونه شائكا فلأن كثيرا من الشباب اصبح قليل المبالاة بالدين، فاذا حدثته عنه اعتبر حديثك تعريضا به وت دخلا في شؤونه الخاصة، فاستنكف واستكبر، واعرض عنك وربما واجهك بما تذكره، هذا ان لم يكن ممن نبذ الدين بالكلية، وصار يتباهي بالالحاد وإلا فانه يثور وتقوم قيامته، ولا تسلم حينئذ من تهجمات العنيفة وتقولاته الشنيعة .

واما كونه خطيرا فلأن الامر يتعلق بمستقبل الامة اساسا . إن أكثر من نصف عدد المسلمين يتكون من الشباب ومن النشء الطالع، فاذا تمادى الحال على ما هو عليه من تقلص ظل الدين بين الشباب، فافنا بعد جيل او جيلين، لا نجد في بلاد الاسلام من يقول ربي الله .

واما كونه متشعب النواحي، فلأن استيفاء الكلام فيه يقتضي ان نتعرض للمراد بالشباب، لان هذا اللفظ اصبح مقولة تطلق على من بلغوا طور الشباب حقيقة، ومن لم يبلغوه بعد من الإيفاع، ومن تجاوزوه من الكهول الذين شارفوا الشيخوخة، فإن الرجل

ما دام غير ملتج حليقا اذيقا، فانه يحشر نفسه في الشباب ويعتبره الناس كذلك، ومعنى هذا ان فزق الشباب، صار ملازما للمشيوخ ايضا او من في حكمهم .

كذلك يقتضينا استيفاء الكلام في هذا المشكل، ان نتعرض للوضع الديني الذي يوجد عليه هؤلاء الاصناف كلهم، وللمراد بالدين هنا، هل العقيدة، او العمل، او هما معا ؟ وكل ذلك مما يتشعب فيه القول، ويفضي بنا الى المساس بشعور الجمهور من الناس الذين لا نريد لهم إلا الخير، ولا نفكر إلا في صلاح حالهم .

إذن فلنقتصر على ما هو ضروري في الموضوع، وعلى ما هو ايجابي لا تشنيع فيه، وهو عرض المشكل وطريقة معالجته، ولنفرض - وهو فرض محتمل جدا - ان مفهوم كل من كلمتي الدين والشباب معلوم لدينا، ومقرر بالبدئية لا يحتاج الى شرح او بيان، فتبقى معنا هذه (الواو) التي الفت بين الكلمتين وجمعتهما في فسق واحد، لما قلنا الشباب (و) الدين، فوضع المشكل، وانطبع في اذهاننا بصورة وابعاده المعروفة، فوجب حينئذ صرف الكلام اليها، اي الى الموضوع الذي يتكون من المتعاطفين كليهما على الجميع لا على الافراد .

ولعل من اهم ما تجب الإشارة اليه اولا ان مشكل الشباب على العموم، هو اليوم مشكل عالمي لا يختص بالشباب المسلم ولا يقتصر على موقفه من الدين فالثورة التي أضرمها الشباب الفرنسي ربيع سنة 1968 وكادت تطيح بنظام الحكم في فرنسا، كان لها صدى في جميع أنحاء العالم، وتجاوب معها شباب أكثر من قطر غربي فضلا عن بعض الاقطار الشرقية. والملاحظ أن انبعاثها كان من الاوساط الجامعية والطلاب في المعاهد العليا، ثم عمت المراهقين من الشباب

الذين كانوا يعربون بضراوة عن تمردهم وسخطهم وخروجهم
على كل الاعراف والمواضع الخلقية والاجتماعية .

ومن المؤلفين الآن في كل البلاد رؤية الافواج من الشباب
الذين اتخذوا التبذل واسدال الشعور والهندام المثير شعاراً لهم
أما جماعة الهيبيين، الذين تخطوا هذه المرحلة، فانهم قد انغمسوا
في القذارة الحسية والمعنوية، واقبلوا على تعاطي المخدرات، وممارسة
أنواع الانحراف، متحدين أولياءهم ومجتمعهم ومعبرين بشذوذهم
واستهتارهم من احتقار كل المبادئ والقيم الانسانية.

فنقطة الانطلاق ضد شباب العصر في تحركاته وسلوكه هي
الرفض كما رأينا لكل المسلمات والتقاليد والاداب العامة التي
وجدوا عليها آباءهم وبيئاتهم، والتي هي أساس المدنية الحديثة،
لا للدين فقط كما هو حال غالب شبابنا .

ان الدين عند شباب العصر نزعة عدمية نشأ على رفضها
مسبقاً، لان أولياءه لم يكونوا يعتبرون الدين شيئاً عملياً، وقد
نفضوا أيديهم منه لما كانوا شباباً فمهدوا بذلك لما يقوم به أبناؤهم
اليوم من رفض تام لكل ما هو طيب وصالح .

وهذا ما نخشاه على مستقبل شباب الاسلام، فان الاتحاد الذي
ينشر اليوم بين شبابنا سيكون مدرجة لوقوع المجتمع الاسلامي
في مأس وانتكاسات الله أعلم بعواقبها، وذلك حينما تنشأ النابتة
الجديدة في أحضان هذا الشباب ولا يكون لها رادع من دين
وخلق يحجزها عن التردّي في حافة الجاهلية الاولى.

على أن من الحق أن نعترف أن الشباب كان دائماً موضع
الملاحظة في كل المجتمعات وعبر العصور، لاندفاعه مع شرة
الفتوة وتحكم الغريزة حتى قال الشاعر :

فان بك عامر قد قال جهلاً فان مطية الجهل الشباب

ومرف الشباب من قديم برقه الدين، واحتمل ذلك منه علماً بأنه سوف يراجع بصيرته ويصلح حاله حين يبلغ أشده ويستكمل رجولته. ألا ترى الحديث الشريف كيف هد الشاب الذي نشأ في عبادة الله من السبعة الذين يظلمهم الله بظله يوم لا ظل الا ظله (1). وما ذلك الا اندرة هذا الشاب في الشباب وخروجه على المعتاد من جنسه .

وجاء في حديث آخر: عجب ربك من شاب ليس له صبوة (2) وهو حديث يؤكد المعنى الذي أشرنا اليه من ان الشباب يغلب عليه اتباع الهوى، ولا يسلك سبيل الرشد الا بعد حين .

نعم هذا هو حال الشباب من زمان، وموقفه من التدين في الماضي، فلسنا نطمح أن يكون أحسن حالا ولا أكثر تديناً في الوقت الحاضر، وقد هاجمته هذه الافكار والمذاهب الا لحادية من كل جهة، وحاصرت داخل المعهد والكلية باسم العلم والبحث الحر، وجاءت التقنية الحديثة بعجائبها ومكتشفاتها، فكانت ضعفا على ابالة، زعزعت مقيدته وغمرت مفاهيمه، ولم تورثه غير قلق النفس وبلبله الفكر وخواء الروح .

انها ظاهرة جديدة وغير طبيعية، فاذا كان ما وصفناه من حاله في السابق ضربة لازب لجموح الهوى به في فورة النضج، حتى ان الشرع ليعذره في بعض الاحيان فالامر بخلاف ذلك في هذه الظاهرة التي تعتبر مرضاً نفسياً وداء اجتماعياً نفسياً في أوساط الشباب بالاعمال وعدم العلاج .

(1) الحديث مروي في الصحيحين وغيرهما .

(2) خرجه أحمد وأبو يعلى واستأده حسن قاله ابن الديبع.

نحن اذن أمام مسؤولية عظيمة يتحمل كبرها رجال التربية والتعليم الذين يجب أن يخططوا لتكوين الشخصية الاسلامية في ظلال العلم والحضارة. ولا يصح مطلقاً أن نلوم الشباب وحده، ونعامل عليه لمروقه من الدين قبل أن نقوم بواجبنا نحوه، فعلياً أن نأخذ الكتاب بقوة قبل أن يفلت الزمام من يدينا.

ان الاسلام هو الذي كيف الحضارة بالجمع بين العلم والدين لأول مرة في التاريخ وبفضله بقي الاعتقاد بوجود الاله حتى في المجتمعات غير الاسلامية، ولنذكر ما فعله ابن رشد في التوفيق بين الحكمة والشريعة، وأثر ذلك في موسى بن ميمون ثم في توماس الاكوينى، فكيف يجوز أن يتعرض شباب الاسلام لهذه الهزات النفسية، ويصيبه من ظمأ الروح ما يجعله ينغمس في الحياة المادية الصرف وقد طب له فلاسفته ومفكروه قديماً بما حفظ عليه ايمانه وقيمته مآت السنين . .

فالتقصير منا لا محالة، والنتيجة ستكون اسوأ كلما تباطأنا في درء الخطرو استئصال الداء قبل استفحاله .

لقد بقيت الفلسفة الاسلامية الى وقت قريب، تدرس في معاهدنا بجانب الفلسفة القديمة، منذ أن غزت هذه الاخيرة عالم الاسلام في حركة النقل والترجمة التي قامت في القرن الثاني الهجري، وكان ان تصدى لها علماؤنا بالرد على ما فيها من زيغ والحاد، وأبلوا في ذلك البلاء الحسن، حتى ان منهم من سمى كتاباً له في نقد بعض المذاهب الباطلة، بهذا الاسم المثير «اجتماع الجهوش الاسلامية على غزو المعطلة والجهمية» (1) فالقوم كانوا جادين في حماية عقيدتهم، وقد عملوا على سد جميع منافذ الشك

(1) الكتاب لشيخ الاسلام ابن القيم .

والحمرة التي أحدثها تدارس الفلسفة القديمة في نفوس أبنائهم، بوضع فلسفة اسلامية معادلة، هي ما يسمى بعلم الكلام وعلم التوحيد، مع علم الاخلاق المسمى بالتصوف .

ولئن حدث هذا والفلسفة ضيقة المذاهب محدودة المطالب فبالاخرى ان يحدث ما هو أعظم منه، وقد اتسعت المباحث الفلسفية اتساعاً عظيماً، ووجدت مذاهب فكرية جديدة أكثرها ذو نزعة مادية خالصة، الا أننا - ويا للأسف - لم نفعل شيئاً في هذا الصدد، والمعاهد والكلليات العلمية الحديثة التي انتشرت في بلادنا انتشاراً كبيراً تلقن أبنائنا نظريات وآراء في الوجود وطبيعة الكون وفلسفة الحياة، جعلت فريقاً منهم يؤله العلم وفريقاً آخر لا يؤمن بشيء وأضعفت إيمانهم بالمثل والاخلاق الاسلامية فصاروا يسخرون منها، وفي أحسن الاحوال ينتقدونها، ويسمونها رجعية وتخلفاً وعدم تفتح على الحياة .

والانصاف يحملنا على القول ان الدعاة المصلحين لم يدخروا وسعاً في مواجهة هذه التحديات، ونقض جميع المطامع التي توجه لعقيدة الاسلام شريعته ومثله العليا، بحيث يتألف مما كتبوه في ذلك رصيد حافل، يثرى الفكر الاسلامي الحديث، ويجعله في وضعية قوية، قادراً على الاخذ والعطاء، مستعصياً على الانتكاس والارتكاس. لكننا رسمياً ما زلنا لم ندخل الاسلام ودراسته كفلسفة ودستور ومنهاج الحياة في برامجنا التعليمية، وما زلنا ندفع بأبنائنا الى المداوس الاجنبية، ونجلسهم بين أيدي معلمين غير مسلمين، لا يؤمنون على عقيدة غير عقيدتهم ان كانوا من المعتقدين، فكيف اذا كانوا وهو الغالب من الملحدين، هذا من غير ان نسلحهم بسلاح التربية الدينية ونلقنهم اصول العقيدة الاسلامية،

وتاريخ سلفهم العريق في العلم والحضارة، فلا جرم افئنا نجني عليهم جناية كبرى، ونهيئهم للانحراف الذي نشكو منه الآن.

هذا في التعليم العمومي، وهو الذي يستوعب الملايين من التلاميذ والطلاب وفي التعليم الديني على قلة رواده، وتناقص عددهم يوما بعد يوم، نجد السياسة المتبعة فيه، هي حشد المسائل والمعلومات التي يضيق بها الذهن وتقتصر عنها المدارك، وذلك منذ المرحلة الاولى، فالصبي الذي ما زال لم يبلغ الحلم، يلقي احكام الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج بكل تفصيل، وكأنه سيصير من يومه إماما في مسجد الحي او مفتيا في البلد، فمن نواقض الوضوء التي تنيف على الستة عشر، كالبول والريح والسلس والمذي واللمس والتقبيل وغير ذلك، الى احكام السهو التي قل ان يضبطها المتفقهون الماهرون، الى النصاب في الزكاة والاصناف المزكاة، والتاجر المدير والتاجر المحتكر، وزكاة الدين وما الى ذلك، مما يسبب لكثير من صغارنا نفورا من هذا الذي نحسب انه هو الدين كله، في الوقت الذي يجب ان نجلب الهمم الايمان وفزيته في قلوبهم، وننمي شعورهم الديني باطلاعهم على محاسن الاسلام وخصاله الحميدة، مكتفين في احكام العبادة بالضرورة الذي نصح به الصلاة، كما كان النبي (ص) يكتفي من الكافر حين يسلم بتعليمه كيفية الصلاة، واعلامه ببقية قواعد الاسلام من غير تفصيل، والحال ان هذا مكلف بالغ قريب العهد بالجاهلية. وليس صغارنا كذلك .

واما الطلبة في هذا التعليم، فان ما يفرض عليهم تحصيله من علوم وفنون واصول وفروع يكاد يفوق الحصر، فاهيكم ان كتابا واحدا مما يدرسه في الفقه، يحوي بقولهم مائة الف

مسألة منطوقا، ومثلها مفهوما، وهو مع ذلك يسمى مختصراً (1) .
لكن الذي لا يدرسونه هو روح الاسلام ورسائله العامة للبشر،
وما أتى به من اصلاح سياسي واجتماعي، وما ينتظر ان يقوم به
من دور في انقاذ البشرية مما تتخبط فيه من ظلم وظلام، وكذلك
فإن خريجي هذا التعليم هم انفسهم لا يؤمنون به، وقل بينهم من
يقوم بعمل نافع، إلا إذا كان ممن كونه نفسه واثم تحصيله
بمحض ارادته واجتهاده .

هذا موقف يجب ان نتدبره ونفكر فيه جيداً، متذكرين
كلمة حكيمة للامام مالك يقول فيها : لن يصلح آخر هذه الامة
إلا بما صلح بها اولها، وهي كلمة مر عليها اثنا عشر قرناً وما يزال
معناها صحيحاً. فإذا أردنا الخير لابنائنا وإذا أردنا أن نطمئن على
مستقبل الاسلام، وإذا أردنا أن ننقذ شبابنا من الحيرة والضلال.
فلنجعل مادة الاسلام بالمعنى الذي ذكرناه، مادة أساسية في جميع
برامجنا التعليمية من الابتدائي الى العالي، ولنقلع عن تقليد
الغرب في اللائكية والعلمانية وعبادة المادة، ولنجعل حدا لترضى
الاقليات الدينية التي طالما سارعنا في هواها حتى أصبح لها علينا
شبه وصاية لا نعمل الا بمقتضاها .

ومع ذلك فالامر بالنسبة الى أغلبية الشباب الذين قطعوا
مراحل التعليم الاولى في المدارس العمومية التي ليس بها تعليم
ديني، سيكون عملية انقاذ ليس الا، وفتيجتها لن تكون مرضية
اطلاقاً، فالمثل يقول : شب عمرو عن الطوق، وكذلك الشاب
الذي كون لنفسه رأياً وأصبح يعتد بشخصيته ولم يبق خاضعاً

(1) هو مختصر الشيخ خليل بن اسحق الجندي المصري المشهور فى
المذهب المالكي.

للتوجيه حتى من أسرته، يصعب إقناعه، وقلما يجدى الحوار معه، فأحرى الزامه والتأثير عليه .

ومن ثم فإن الخطة العملية والتي ينتظر أن يكون لها نتيجة ايجابية في توجيه شبابنا توجيها اسلاميا صحيحا، هي التي تبدأ من الفصول الاولى في التعليم الابتدائي، وتدرج من البسيط الى المركب، ومن التلقين والايحاء الى التشويق وحل المشاكل، في المراحل التعليمية التالية، حتى ينشأ الشاب على هدى وبصيرة من أمر دينه، وفي مناعة من التهارات الفكرية المضادة التي تهب عليه من هنا وهناك .

وأذكر للاعتبار فقط، أنني كنت في اسبانيا ذات مرة، وصادف وجودي في غرناطة يوم الاثنين. وهو يوم تعطل فيه الصحافة الاسبانية، ولا يصدر فيه الا جريدة واحدة تسمى صحيفة الاثنين، فأخذت هذه الصحيفة لانظر فيها أنباء اليوم، فإذا بداخلها ملحق صغير للاطفال، يكاد يستغرقه كله مقال رئيسي بعنوان (محمد النبي المزيف) وقد كتب بلغة بسيطة جدا، ولكنها مليئة بالهزء والسخرية، وبنى على فكرة اقتباس القران من التوراة والانجيل اقتباسا مشوها، لان صاحبه كما يقول المقال، كان أميا لا يعرف كتابة ولا قراءة، وأما تلقف ما ضمنه في كتابه من أفواه اليهود الذين كانوا يسكنون جزيرة العرب، وبعض الرهبان الذين لقيهم أثناء رحلته الى الشام .

وهكذا يعمل المسيحيون على تنشئة أبنائهم منذ الصغر على عقيدتهم وتربط اسبانيا الكاثوليكية في حصن غرناطة مطاردة الاسلام حتى في نشرات الاطفال، بعد أن اجلت أتباعه عن هذا الحصن بعدة قرون .

وصدق رسول الله (ص) حين قال « كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » (1) .
وإذا كان ما ذكرته لحد الآن انما يتعلق برجال التربية والتعليم، والمشرفين على وضع البرامج والمناهج في وزاراتنا المختصة، فليس معنى ذلك انهم المسؤولون وحدهم عن جنوح الشباب وضعف شعوره الديني، فإن على رجال السلطة من المسؤولية في ذلك قسطاً وافراً إذا لم يقوموا به ذهبت جميع جهود المربين والمعلمين سدى، وقديماً قيل : « لما يزرع الله بالسلطان أكثر مما يزرع بالقرآن » .

وقد اشرت فيما مضى الى ما للاقليات الدينية في بعض البلاد الاسلامية من التأثير في هذا المجال، واحب ان اوضح هذه النقطة التي اصاب العالم الاسلامي منها خطر كبير، ذلك ان هذه الاقليات وان كانت تتمتع بجميع الحقوق، وبما ليس لاقلية اخرى في اي بلد غير اسلامي من الاعتبار، فإنها لم تقنع إلا بالهيمنة على اجهزة الحكم والقوانين الدستورية، وبذلك سيطرت سيطرة تامة على الدول التي تنتمي إليها، ناهيك بأن بعض هذه الدول كان في دستورها ان دين الدولة هو الاسلام، فحذفت هذا البند من الدستور فرفضها للاقلية المتعكمة، وهو امر لا نظير له في انقياد الاكثرية لحكم الاقلية . ولا نذكر هنا الاقليات الاسلامية المهمة في الهند والصين والاتحاد السوفياتي، وإنما نذكر الاقلية الكاثوليكية في المملكة المتحدة البريطانية، وهي اقلية تبلغ بضعة ملايين، فهل دار بخلدها قط ان تتحكم في الاكثرية البروتستانتية، مثل هذا التحكم ؟، وتعارض مثلاً الملك او الملكة

(1) الحديث رواه الترمذي وغيره .

في القسم الذي يؤديه على حماية الكنيسة الانجيلية والاخلاص لها عند ارققاء العرش . وليقل في الاقليات المماثلة بألمانيا وهولندا وسويسرا وغيرها ما قيل في الاقلية البريطانية .

إن اسراف السياسيين عندنا في فرضي الاقليات الدينية جاوز الحدود حتى ادى الى التنازل عن حق الاكثرية في حماية دينها والتظاهر به، بل ادى الى تعطيل احكامه بالمرّة، فإن عدم النص على ان دين الدولة هو الاسلام، استتبع طبقاً لمبدأ دستورية القوانين، عدم استمداد القوانين المدنية والجنائية من احكام الشريعة الاسلامية، وبذلك اصبحت الاحكام الشرعية معطلة، والمسلمون يحكمون بالقوانين الاجنبية، وذلك منتهى الظلم، فإنك لو حكمت فرنسا مثلاً بقانون إيطاليا او العكس لكنت تظلمهما على ما بينهما من التقارب والتشابه، فكيف ببلاد الاسلام التي تقع في الشرق وتدين بدين غير دين الغرب، واحوالها الاجتماعية والاقتصادية غير احواله .

ولقد وجد هذا الوضع بحكم التقليد حتى في البلاد الاسلامية التي ليس فيها اقلية دينية اخرى، فانهدم فيها ايزاً وازع الشرع، وصار التظاهر بمخالفة الاحكام الشرعية، يقع فيها كما يقع في البلاد ذات الاقليات الدينية غير الاسلامية التي يلتبس فيها المسلم بغيره .

ولا يخفى تأثير هذا الوضع السيئ على اخلاق الشباب والمجتمع بعمامة، فإن البيئات التي يكون الحكم اجنبياً عنها تتفكك بسرعة، وقد لوحظ فعلاً ان ما حل بكيمان المجتمع الاسلامي، من قضع وضع وانهيار في مدة اربعين سنة فقط، اي فيما بعد الحرب العالمية الاولى، لم يسبق له نظير ولم يكن يتوقعه احد، وذلك من جراء تمركز الحكم الاجنبي في البلاد الاسلامية، في هذه

المدة، فقد تبدد نظام الاسرة الذي كان محاطا بهالة من التقديس، وخرجت المرأة المصونة الى الشارع كاشفة عن محاسنها، متحدية قعاليم القرآن في عدم ابراز زينتها للاجانب، واصبح تعاطي الخمر والافجار فيها شيئا عاديا، وفتحت المواخير المنوعة، والمراقص العامة واندية القمار برخصة من الدولة، وهكذا انقلب المجتمع الاسلامي الذي كان مثالا في التمسك بالفضيلة ومجافاة الرذيلة الى بؤرة من بؤر البغي والفساد، وذلك بين عشية وضحاها، والسر هو ان القوانين التي اصبحت سائدة فيه، لا تعاقب على هذه الموبقات، وليس فيها نص على استنكارها وان كانت من اكبر المنكرات في شريعة الاسلام .

إننا لا يمكن ان نصلح ما بنا ونعود بشبابنا الى سلوك الجادة إلا بالرجوع الى شريعتنا الغراء، نستفتيها ونستطب بها لمجتمعنا، وليس ذلك بالامر العسير إذا صممنا عزمنا واجمعنا امرنا، وانتزعنا قيادتنا من يد الثلة التي لا قالوفنا خبالا، ولن ترضى عنا حتى فتبع ملتها .

هذه واحدة، واخرى ليست اقل منها خطرا، وان كنت لا احمل مسؤوليتها احدا، فقد كنا جميعا من التحجير والضغط على الانكار، نطالب بها ونفراها وسيلة الخلاص، إلا اننا على العادة اسرفنا فيها، وفتحنا ابوابها على المصاريح، ولا سيما فيما يتعلق بأمر الدين والاخلاق، وسائر مقوماتنا الروحية والمعنوية، وتلك هي هذه الحريات العامة والقانون الذي يضبطها زعماء، والحقيقة انه يطلقها من كل الضوابط العرفية والاجتماعية التي كانت تقيدها فيما قبل .

فبمقتضى هذا القانون أصبحت حرية العقيدة وحرية التعبير

من الرأي مكفولتين لكل الافراد، وتعني الحرية الاولى حق الفرد في أن يعتنق ما شاء من المبادئ والعقائد، دون تدخل من السلطة، وهذا أمر مخالف لحكم الاسلام فيمن بدل دينه من المسلمين. فالشرع الاسلامي ان كان قرر حرية الاعتقاد والتعبد للبلل المنضوبة تحت لواء الحكومة الاسلامية، فانه منع ردة المسلم متعا بانا ووضع لها حكما يتضمن عقابا صارما لمرتكبها. فكيف نطلق نعن هذه الحرية ونشجع المنحرفين والمذبذبين والمدسوسين على التلاعب بالدين الذي يجب أن تحميه ولا نعرضه لما يجعله لا حرمة له ولا قيمة.

ثم ان هذه الحرية تفتح الباب للدعاة المسيحيين المسمين بالمبشرين، الذين يستهوون العوام بالوسائل المختلفة من تمرير وإحسان وغيرهما، وقد يستدرجون الشباب بوسيلة التثقيف وتعليم اللغات وتنظيم رحلات الى الخارج، فيصبح الشخص مومنا ويمسى كافرا كما أخبر بذلك الرسول (ص) في حديثه الشريف (1) ويغزى الاسلام في عقر داره، والمباشرون لهذا الغزو في حل من المتابعة، لانهم يعملون حسب قانون الدولة وهذا بغض النظر عن النتائج السياسية التي تترتب على استفحال حركة التبشير، كما نشاهده الآن في بعض الاقطار الافريقية بالخصوص.

وأما الحرية الثانية فتعني حق الافراد في التعبير عن آرائهم وابداء مشاعرهم دون تقييد سابق ولا تدخل من السلطة. وهي تشمل حرية الكلام والكتابة والنشر وما يقوم مقامها في التبليغ والاداء، وقد دخل على المجتمع الاسلامي من هذه الحرية مفساد

(1) الحديث أخرجه مسلم والترمذي .

كثيرة لأنها خولت لكل من عب وودب أن يقول ويفعل ماشاء.
فالصحافة تنشر لطائفة من الكتاب مقالات في نقد العوائد
والاخلاق الاسلامية وتنتقد حتى العقائد والمقدسات بحجة حرية
الرأي، والكتب تصدر في الطعن على الاسلام وتاريخه وشخصياته
الكبيرة ولا من رقيب عليها أو حسيب بل ان بعض هذه الكتب
تقرر في المناهج الدراسية، فقد اختيرت كتب بعض الكتاب
المسيحيين المصريين (1) في أحد البلدان الاسلامية ليقرأها طلبة
الاقسام الثانوية بدعوى أنه قطب من اقطاب الفكر الحر، وكذلك
يعتبرونه في مصر، مع أنه مسيحي متعصب في داخل نفسه وان
تظاهر بحرية الفكر وكان . . كلما كتب مقالا ينال فيه
من الدين والمقدسات، كتب مقالا ضده على خط مستقيم في
مجلة المنارة المسيحية التي تصدرها الكنيسة القبطية في مصر،
ولا يوجد من يفضحه ويعريه للناس حتى يعرفوا قيمته الحقيقية
ونفاقه الذي يعتبره المغفلون حرية فكر.

وما قيل في الصحافة والكتاب، يقال في السينما والاذاعة والتلفزة،
فقد صارت مناظر العري والمغازلة والتخنث مما يعرض على
الجمهور دون خجل ولا حياء والانعكاسات التي تكون لهذه
المناظر على نفوس الشباب المراهقين، فتيانا وفتيات، وعلى
عموم أفراد الاسرة، مما لا يجهل مفعولها أحد.

كل ذلك وأكثر منه يرتكب باسم حرية الرأي التي
يحميها القانون فكيف نطمح ان يكون للدين شأن، وان ينشأ
شبابنا على شيء من التدين في هذا الوسط الذي يطارد الدين
وفضائله باسم القافنون.

(1) هو سلامة موسى .

وكأنني بمعترض يقول: انك نطمح في قانون الحريات العامة، فهل تريد ان تلغيه وفرجع الى ما سميت به بزمان الحجر والضبط على الانكار. وأنا إنما اريد المحافظة على دين الامة واخلاق الشباب، وبناء المجتمع الاسلامي الذي تسود فيه الفضيلة، ويخضع لقانون الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي به كنا خير امة اخرجت للناس، وبذلك نؤدي رسالة الاسلام التي طوقنا بها في قوله عز وجل: « وكذلك جعلناكم امة وسطا، لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا، » وهي الرقابة الخلقية على الضمير العالمي والقوامة الروحية على المجتمع الانساني، لتبقى القيم والمثل بمنجاة من التزييف والابتذال .

فان كان قانون الحريات العامة او اي قانون آخر مما يتوافق مع هذه الاغراض النبيلة، فيها ونعمت، وإلا فليبلغ ولا كرامة، فقد الفته في غير ما بلد اكثر من حكومة قنعت نفسها بالشعبية والتقدمية وما الى ذلك او عطلته، وما كان الذي الفته من اجله او عطلته بأفضل مما ذكرنا، وإنما هو المساس بسياساتها او بمتسلط من ذوي الشأن فيها، « ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون » .

مستقبل الاسلام بيد أبنائه

مما لا ريب فيه، أن مداً فكرياً عظيماً يتصاعد يوماً فيوماً، في كل بقعة من بقاع العالم الاسلامي، وهدفه مقاومة الغزو الفكري الاجنبي الذي طغى على الحياة العامة في بلاد الاسلام، فزيفها ولفها في ثياب الابتذال والاستلاب، حتى أصبح المجتمع الاسلامي صورة مهزوزة من المجتمعات الغربية بما فيها من تدين مدخول ومادية ملحدة.

ولقد شعر مفكرو الاسلام وقادته المصلحون، بالخطر الذي يهدد الوجود الاسلامي، منذ أخذت دولة الاسلام تترنح للسقوط، فأطلق الجيد جمال الدين الافغاني صيحته المدوية التي كانت ترمي الى جمع كلمة المسلمين، ودعم دولتهم التي تحفظ هياكلهم، علماً بأن الاسلام دين ودولة، ومصحف وسيف، فلا قيام لاحدهما بدون الآخر.

وخلفه الشيخ محمد عبده، وان حول الدعوة من اتجاهها السياسي الى اتجاه علمي، فرد الشبه، ودحض المفترقات التي توجه الى الاسلام، وكون عند المسلمين وعياً بالمشاكل التي تعترض حياتهم الدينية في العصر الحديث، فصار هذا الاتجاه هو القناة التي كتب للمد الاسلامي أن يصب فيها من حين ظهوره الى الآن.

أما الاتجاه السياسي فقد اختلج المسلمون دونه، وتراجع مده بعوامل مختلفة، وتعدت ضغوط داخلية وخارجية كما سندع اليه فيما بعد

وفي البدء لم يكن حماة الاسلام يواجهون ما نواجهه الآن من أنظمة سياسية ومذاهب اجتماعية واقتصادية متكاملة وانما كانوا يصطدمون بأقوال ومطاعن على تاريخ الاسلام والشرعية الاسلامية، وربط تأخر المسلمين بتمسكهم بالدين، وخاصة بعقيدة القضاء والقدر، التي تجعلهم يخلدون الى العجز والكسل، ويقعدون عن مجاراة الامم والشعوب الراقية، فقد كثرت المزاعم التي تقول على الاسلام بأنه ضد العلم، وأن دولته اظهرت الفلسفة والمفكرين الاحرار أينما كانوا، وأن عمر بن الخطاب أحرق مكتبة الاسكندرية لما فتح مصر، وأن حضارة الاسلام انما كانت امتدادا لحضارة الشعوب المفتوحة التي انضوت تحت سلطة المسلمين، لم ينشئها الاسلام ولم تتميز بشيء عن الحضارات السابقة، حتى التشريع الاسلامي لم يكن الا نسخة طبق الاصل من الفقه الروماني الذي كان منتشرا في الشام، وفي ظلاله نشأت المذاهب الفقهية الاسلامية المعروفة .

وراجت هذه الأقوال بين الشباب المتعلم الذي قرأها في اللغات التي كتبت بها، ونقلت بالترجمة الى العربية ضمن الكتب والدراسات التي وضعها المستشرقون عن الاسلام وتاريخه، وردد صداها بعض الكتاب من نصارى العرب مثال فرح أنطون في مجلة الجامعة، حين ادعى أن المسيحية كانت أرحب صديرا مع العلم والفلسفة من الاسلام، ولذلك فما غرسهما وترعرع في ظلها ما لم ينم وترعرع في ظله.

وكانت الشريعة الاسلامية كذلك هدفا للطعن والتجريح،

وركز الانتقاد لها على وضعية المرأة في الاسلام، وما عاملتها به الاحكام الفقهية من حيف واجحاف بزعيم الغصوم، فمن تقييد حريتها وضرب الحجاب عليها، ومنعها من التعليم، الى سيف الطلاق المصلت على رأسها، وجعل نصيبها من الارث على النصف من نصيب الرجل واباحة تعدد الزوجات، وغير ذلك مما قضى على المجتمع الاسلامي بالتفكك وانعدام اللفة بين أفرادها، وانتشار الجهل وقبول الضيم، اذ المرأة هي نواة الاسرة ورعاية البيت، ومربية الولد، فما كانت عليه من حال ظهر أثره في المجتمع ان صالحا او فاسدا.

وقد تلقف الجيل الجديد، ولا سيما الفتيات هذه الآراء، معتقدا صحتها، ومطالبيا بانصاف المرأة ورد الاعتبار اليها، واعطائها حقوقها كاملة. وكتبت مؤلفات في هذا المعنى من أشهرها كتاب تحرير المرأة والمرأة الجديدة لقاسم أمين .

ولم تسلم أحكام المعاملات هي الاخرى من الاعتراض، فالربا الذي حرّمته جميع الشرائع السماوية والوضعية، ولم يحترم كبر تحليله الا اليهود عبر العصور، ثم أخذهم النظام الرأسمالي الشائع، أصبح مما يعد في وسائل التقدم الاقتصادي، ويؤخذ على الاسلام عدم القول بجوازه، ويعزى تخلف المسلمين اقتصاديا الى تخرجهم من المعاملات المصرفية، وقبول الفائدة، حتى رسخ هذا الاعتقاد في نفوس الكثير منهم، وهما بعض العلماء فأفتى بجوازه أو بعض الانواع منه .

كل ذلك انما كان المراد منه تشكيك المسلمين في دينهم، وصرفهم عن الحكم بشريعته، واضعاف معنويتهم لتضعف مقاومتهم، وزعزعة كيانهم ليسهل الاستيلاء عليهم، واذا ذاك يتم

استلابهم، فلا يبقى لهم ماضٍ ينظرون اليه، ولا مستقبل يؤملونه،
وتقرر عين المستعمر بتبعيتهم له الى الابد .

ولكن علماء الاسلام انبروا لهذه التهم فردوها، وبينوا ما
فيها من جهل وتحامل، وكان أسبقهم الى ذلك وأطولهم بدا الشيخ
محمد عبده في كتابيه الاسلام والرد على منتقديه، والاسلام
والنصرانية مع العلم والمدنية، وهما الكتابان اللذان ضما بين
دفئيهما مجموع المقالات التي كتبها الاستاذ الامام في الرد على
هانوتو ورنان، وإبطال دعاويهما على الاسلام، والاول من ساسة فرنسا
الكبار، والثاني من فلاسفتها الاعلام. كما يضم الكتاب الثاني
رده على نهج أنطون سالف الذعر فيما كتبه على فلسفة ابن
رشد وموقف الاسلام من العلم والفلسفة بعامة الى ردود اخرى
وتصحیحات لاخطاء وقع فيها غير واحد من الاجانب الذين تعرضوا
للحديث عن الاسلام، تضمنها الكتابان المذكوران .

ولا اخالني مهما بالغت في القول، موفيا بحق التقدير المعمل
الفكري القيم الذي قام به الشيخ محمد عبده في المنافعة عن
الاسلام، وثبیت الشبیهة العصرية على الايمان، ووضع أسس الفكر
الاسلامي الحديث الذي خلف علم الكلام القديم، فاني أشبه عمله
هذا بعمل علماء السلف الذين واجهوا شبهات الفلسفة اليونانية،
ومذاهب الفرق الاسلامية التي أحدثت في الاسلام، بما بين قهافتها
ودحض مزاعمها، حتى خلصت العقيدة الاسلامية من جميع الشبه
التي أوردت عليها، وحوى الله دينه وشريعته من زيف الملحدين
وفتنه المبطلين .

وبالاشارة الى الموضوعات الاساسية التي تناولتها تلك المقالات
يظهر مدى الجهد الذي بذاه المفكر الاسلامي الكبير في تقرير

حقيقة الدعوة الاسلامية، وما أنت به من اصلاح عام، ومنهج كامل للحياة هو الذي قامت عليه الحضارة العربية التي اقتبس منها الاوروبيون، وكانت السبب في بقظتهم ونهضتهم وكل ذلك بأسلوب واضح وعرض جديد، يساير العقلية المتطورة والتفكير الحديث، الذي لا يقتنع بالغيبيات، ولا يسلم الا بالدليل القاطع والواقع المحسوس.

واذا كان هانوتو، وهو يتحدث عن سياسة بلده فرنسا في الاقطار الاسلامية التي بسطت سلطانها عليها تعرض للعقيدة الاسلامية التي تقوم على توحيد الخالق عز وجل، وتنزيهه عن شبه التشبيه، فزعم أنها سبب تخلف المسلمين وركونهم الى حياة البؤس والتخول، بخلاف العقيدة المسيحية التي تقول بتعدد الآلهة فقد فتح المجال أمام الشيخ محمد عبده للمقارنة بين العقيدتين وأثرهما في أئبائهما، مع ملاحظة أن التثليث، وهو المراد بالتعدد، طارىء على المسيحية، متسائلا: ماذا كانت عليه حال أوروبا، وهي تعتنق المسيحية قبل اتصالها بالاسلام واشراق نور حضارته عليها؟ ولما كان هانوتو يحرص على الربط بين الحضارة الاوروبية والحضارة الهندية، ويعبر عنهما معا بالحضارة الآرية، ويرجع الفضل في نشوءهما والتقاءهما الى القاسم المشترك بين الوثنية الهندية والمسيحية الاوروبية، فقد دفع ذلك الشيخ محمد عبده الى الكلام على الحضارة الهندية، ونظام الطبقات الذي يتكون منه المجتمع الهندي، مما تقضى به وثنية الهند، معطيا لهانوتو أسوأ الامثلة عما تلاقىه الانسانية من ذل وهوان في ظل الحضارة الآرية التي يعجب بها، وبذلك أثبت جهله بالاديان والتاريخ .

ثم عرض لمسألة القضاء والقدر وما خبط به هانوتو فيها، فبين أن هذه العقيدة ام تختص بدين من الاديان، ولا فلسفة من الفلسفات،

وأن الناس ما زلوا فيها بين طرفين، وذكر له من طوائف المسيحيين خاصة، من يقول بالجبر، ومن يقول بالقدر، وبعد ذلك شرح مذهب الاسلام في المسألة وهو وسط بين الطرفين يثبت الكسب والاختيار، قال: ان في القرآن نحو أربع وستين آية تدل على ذلك، وضرب المثل بالنبي (ص) وجهاده في سبيل اعلاء كلمة الله وتبليغ دعوته، والصحابة الكرام وسلف الامة الذين نشروا الاسلام في جميع أنحاء الارض، وشيدوا تلك الحضارة التي أدهشت العالم في مدة وجيزة، وقبضوا على زمام الحكم في القارات الثلاث قرونا متعددة، فالقول بأن القضاء والقدر هو سبب تأخر المسلمين مغالطة مكشوفة لانه في الواقع وبالمفهوم الاسلامي الصحيح هو الذي قاد المسلمين الى مواطن العزة والنصر، وما قعد بهم الا الجهل والتواكل والدروشة التي دخلت عليهم من جهلة العجم، والطوائف المبتدعة والفرق الضالة .

ويرتفع مستوى التفكير عند رد الشيخ على هانوتو في مسألة التنزيه اي التوحيد والتشبيه أي الاعتقاد بتسجد الالهية الذي جعله هانوتو مصدر تفوق الجنس الباري ومنبع حضارته، فيذكر أن الوثنية المجسمة التي هي بنت التشبيه كانت وما تزال عقيدة الذين وقفوا على أبواب المعرفة الانسانية ولم يدخلوها وهي دلهل على انحطاط عقول معتنقيها مع تفاوت في درجات الانحطاط، من وثني افريقيا الى بوذي الصين وأن الانسان كلما ارتقى في العلم تجلت له الحقيقة الكاملة حتى ينتهي الى الاعتقاد بوجود اله واحد ليس كمثله شبي، كان ذلك شأن اليونان الذين فشأوا على الوثنية، فما زالت وثنيتهم ترق وتضعف بارتقائهم في العلوم، وبحث فلاسفتهم في طبائع الكائنات حتى

انتهوا الى التوحيد، وقف فيثاغورس على عتبة التقديس، وجاء بعده سقراط وأفلاطون وأرسطو الذين بذلوا وسعهم في محاربة الوثنية. ومن قرأ جمهورية أفلاطون، علم كيف قارع هذا الفيلسوف عبادة الاصنام والعقائد السخيفة التي كانت منتشرة في أمته . . وهكذا يبرهن على أن الوثنية ما كانت قط علامة الرقي ولا عنوان الفضل كما يزعم هانوتو، ويتطرق بعد ذلك الى بيان مساوى العقيدة المسيحية التي قال هانوتو انها تحفز أتباعها الى طلب الكمال والتشبه بالآلهة في الخلق والابداع، فذكر من استعباد الكهنة والرهبان لعامة الشعب والنساء وادعائهم القدرة على مغفرة الذنوب، وسيطرة الكنيسة على العقول وتصرفها في حياة الناس بالاهام الباطلة ما هو معروف، حتى قامت حركة الاصلاح، وقضت على كثير من مظاهر هذه العقيدة الفاسدة، فاستقامت أوروبا على طريق النهضة ولو بقيت متمسكة بتلك العقيدة لما أفالحت من غشيتها أبدا. هذا في حين أن الاسلام الذي جاء بالتوحيد، وتنزيه الخالق عن التمثيل والتشبيه، دما الى افراد الله عز وجل بالعبادة، ولم يجعل بين العبد وربّه واسطة أصلا، وحرر العقول والنفوس من سيطرة أي مخلوق وسلطة أي رئيس، وبذلك نفخ في اتباعه روح العمل والسعي وتحمل المسؤولية، فانتشرت الفضائل، وامحت الرذائل، وكنورت العقول، قال : ولئن طالت به غيبة فله اوبة، ثم هو على ضعف اهله وادبار دولته، ما يزال ينتشر في الصين وغيره من أطراف آسيا وافريقيا وفي انتشاره الخير الكثير، فقد قال القس اسحاق طيار : «إن الاسلام ينتشر في افريقيا ومعه تنتشر الفضائل فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره، والشجاعة والاقدام من أنصاره.. في حين أن السكر والفحش والقمار، تنتشر بانتشار المسيحية،

واني لأفضل اسلما لا سكر فيه على مسيحية فيها سكر .
هذه رؤوس أقلام فقط مما تناوله الرد على هانوتو، وأي
شاب أو مثقف خالسى الذهن من الحقائق الباهرة التي تخطوي
تحتها، لا تستهويه تلك التهم الباطلة، ولا يتزعزع إيمانه ان لم
يؤيد بروح من التربية الدينية، ويتوفر على معلومات مماثلة تثبت
بالقول الثابت، وأنى له ذلك لو لم يقم هذا الامام بتقديمها له
وتمكنه منها في سهولة واسماح ؟ .

★ ★ ★

وبمثل هذه البسطة في العلم والحصافة في الرأي، يرد الشيخ
الامام على رنان الذي اتهم الاسلام بالجمود والتعصب، وقال في
عرض كلام له في قسائل المذاهب الدينية مع العلم: «على اني
اخشى ان يثبت الدين الاسلامي وحده في وجه هذا التسامح
مع العلم في العقائد، ولكني اعرف ان في نفوس بعض الرجال
التمسكين بأداب الدين الاسلامي القديمة، وفي بضعة من رجال
الاستانة وبلاد الفرس جرائيم جيدة تدل على فكر واسع وعقل
ميل الى المسالمة، الا انني اخشى ان تختنق هذه الجرائيم بتعصب
بعض الفقهاء، فاذا اختنقت قضى على الدين الاسلامي، ذلك انه
من الثابت الآن أمران، الاول أن التمدن الحديث لا يريد امانة الاديان
بالمرة لانها تصلح أن تكون وسيلة اليه، والثاني انه لا يطيق ان تكون
الاديان عشرة في سبيله، فعلى هذه الاديان أن تسالم وتلين
والا كان موتها ضربة لازب .

ولا يمكننا أن نعطي خلاصة لرد الشيخ على هذا الكلام.
فانه افاض في الكلام على الجمود وآثاره السيئة في حياة الافراد
والجماعات، ولم ينكر ما عليه المسلمون من جمود وتمسك بما
ألفوا الا انه بحث في أسباب جمودهم هذا ورد أكثرها الى

استعجاب الدواة، وجنابته على اللغة العربية التي بها تفهم مقاصد الكتاب والسنة وهما أصل الدين، ثم تكلم على جمود المحدثين من خريجي المدارس العصرية والدارسين في البلاد الأجنبية فذكر أنه كجمود القدماء شر على أصحابه، إذ يبادرون إلى الأفكار، ويعتقدون أن ما تعلموه أو رأوه خارج أوطانهم هو عين الحق، غير مميزون بين خطأ وصواب، ولا بين ما هو مدسوس على الدين أو ما نقول عليه لمجرد العداوة للإسلام ونبيه الكريم، فينفضون أيديهم منه، زعمًا بأنهم من أنصار العلم والتقدم. وبعد بحث طويل في هذا الموضوع ختم كلامه بفصل في أن الجمود علة تزول، ومما جاء فيه هذه الجملة الفذة: «إن الإسلام لن يقف عثرة في سبيل المدنية أبدًا، ولكنه سيهذبها وينقيها من أوضارها وستكون المدنية من أقوى أنصاره متى عرفت عرقها وأهلها». وهذا الجمود سيزول، وأقوى دليل على زواله بقاء الكتاب العزيز شاهدًا عليه بسوء حاله، واطف الله بتقويض أناس لكتابته ينصرونه، ويدعون إليه ويؤيدونه والحوادث تساعدهم، وسوط عذاب الله النازل بالجامدين ينصرهم» .

ولا يمنعنا الإعجاب بهذا الرد المفحم، من أن نعقب عليه بأن المبالغة في التسامح والتساهل، ربما أدت إلى عكس المطلوب فإذا كان المراد هو نشر العلم والمعرفة والتمكين لهما، وإزالة كل العوائق والمثبطات من طريقتهما فإن علينا أن لا ندوس عقيدة الأمة في سبيل ما يسمونه بالعلمانية، وأن لا نتجاهل المعالم التي يجب الوقوف عندها كما حصل في تركيا التي أفنى رفان على سعة فكر بعض رجالها من فصل الدين عن الدولة، وإلغاء الخلافة الإسلامية، واستبدال الحروف الأجنبية بالحروف العربية في

الكتابة، وكما حصل أخيراً في إيران، وهي أيضاً قد حظيت بتنويه رفان، من الاحتفال على نطاق دولي بذكرى نشوء الامبراطورية المجوسية التي حطمها الاسلام .

ان الله قد جعل لكل شيء قدراً، فالتسامح وعدم التعصب مما ندب اليه الاسلام ودعا اليه، ولكن المسلمين قد ذهبوا في ذلك طرفاً حتى افنا فقرانهم بالامم والشعوب التي اعلنت رسمياً عن عدم تدينها فنجدهم قد اربوا عليها في عدم المبالاة بأمر الدين، والتضحية به اول الامر من غير ان يدعوهم داع الى ذلك او يجديهم شيئاً عند من يتقربون اليهم به، فهذه الدعوة قد جاوزت حدها اليوم، واصبح المسلمون بحاجة الى الاستمسك والمحافظة اكثر من كل وقت مضى .

والرد الذي ارسى قواعد الفكر الاسلامي الحديث، وبدد كل شبهة توجه اليه، في اصله وتاريخه، هو ما كتبه الاستاذ الامام نقضا لما ادعاه فرح انطون فيما كتبه عن فلسفة ابن رشد ونشره بمجلة الجامعة من موافقة المسيحية للعلم والمدنية ومعارضة الاسلام لهما. وقد اثبت عكس ذلك بما لا مزيد عليه في وضوح الحجة وقوة البيان، فقرر ان طبيعة الاسلام مع العلم، وان الاصل الاول الذي قامت عليه الدعوة الاسلامية هو النظر العقلي لتحصيل الايمان، وان مقتضى العقل مقدم على ظاهر الشرع عند التعارض الى آخر ما ذكر من الاصول العامة، ثم انتقل بعد ذلك الى ذكر نتائج هذه الاصول في الحياة الفكرية الاسلامية، فتكلم على اشتغال المسلمين بالعلوم الادبية، ثم العقلية في الصدر الاول، واقبالهم على العلوم الكونية في القرن الثاني، وانشائهم لدور الكتب العامة والخاصة، والمدارس والمستشفيات، ونبوغهم في

مختلف العلوم والمعارف، وكشفهم وتجاريهم العلمية التي افاد منها المغرب، وكانت اساس نهضته ومدنيته الحاضرة، وهذا الى تقديمه القول في اضهاد النصرانية للعلم والعلماء، ونفى ذلك عن الاسلام الذي كان اتباعه متسامحين مع اهل النظر من كل ملة، وتقريره لاصول النصرانية التي تناهذ العلم والمدنية، وهي الاعتقاد بالخوانق، وسلطة الرؤساء الدينيين، واطراح الدنيا والايمان بغير المعقول، وكون الكتب المقدسة حاوية لكل المعارف التي يحتاج اليها البشر، ومن ثم تعرض لاحراق مكتبة الاسكندرية في عهد جول قيصر، قبل ظهور الاسلام، وقتل العلماء وإحراقهم، ومراقبة المطبوعات، ومحكمة التفتيش على عقائد الناس، ورفض الكنيسة لاستعمال الحقن تحت الجلد ومختلف العلاجات الطبية الجديدة آلى غير ذلك من مظاهر التخلف الفكري التي انما كان الدافع اليها التعصب المسيحي ومطاردة رجال الدين للعلم والمدنية .

ولا يقف الرد عند هذا الحد بل يعضي في مناقشة رأي فرح أنطون، في فلسفة ابن رشد ومذاهب المتكلمين في الوجود، فيبين خطأه في فهم أقوال هؤلاء الائمة، ويحرر المناط بما عهد في صاحبه من دقة النظر وسعة الاطلاع . وهذا القسم من الرد لا يهمنا هنا فلنذلك لا نعرض عليه .

ان ما نريده من هذا العرض السريع، هو القول بأن حركة الفكر الاسلامي، في مدها الاول، بدأت قوية ومعتدة بنفسها ومستقيمة على الطريقة، وقد فزات المعركة وهي مسلحة بسلاح العلم والايمان، فلم تعوزها الادلة اليقينية والوجدانية لدحر الخصم وكسب الانصار، وهم من الشباب وعامة المثقفين الذين اوشكوا ان يقعوا في حبال الدعايات المفرضة، ونسبهم أفكارهم بالاراجيف التي تجا في

الحقيقة وتجننى على التاريخ أعظم جنابة. فما أن انطلقت هذه الردود الموضوعية، حتى تلقفها الجميع بغاية التدهف، وكان لها الوقع الحسن في النفوس والتأثير البليغ على المشاعر، وسكنت هيمة المتطاولين على الاسلام، ولو الى حين واطمأنت قلوب المومنين بما هداها من الحيرة وفهرها من اليقين .

ولم يكن الجانب العقائدي والحضاري وحده من الفكر الاسلامي الذي أثار ردود الفعل على الخطة المبيتة لمهاجمة الاسلام، فالجانب الاجتماعي والاقتصادي أيضا مما تبارت الاقلام في الذب عنه، وابطال التهم الموجهة اليه، ولئن برز الشيخ محمد عبده وكاد ينفرد بالعمل في المجال الاول، فقد شاركه في العمل بالمجال الثاني علماء مصلحون عاشوا مثله عهد التكالب على الاسلام، والحملات المسعورة التي شنت ضده في مفتتح هذا القرن عند انهزام دولته، قداعيا مع المثل القائل: اذا سقطت الجزور كثرت السكاكين فانتدب اولئك الغير لحماية بيضة الدين والمنافعة عن حقيقته بما اوتوا من سعة علم وقوة بيان، وما كانوا ينطوون عليه من نزعة الى التجديد وتطلع الى الاصلاح، وفذكر منهم الشيخ عبد العزيز جاويز والشيخ عبد الحميد الزهراوي والشيخ مصطفى الغلاييني والاستاذ محمد فريد وجدي والعلامة حسين الجسر، وتلك الطبقة التي لم تأل جهدا في ابراز محاسن الاسلام واسرار شريعته ومثله العليا وأخلاقه السامية، مغبرة في وجوه المعترضين والمنتقدين الذين خفيت عليهم حكمه وقيمه واتجاهلوا، فرموه بما عبر عن ذات أنفسهم من حقد دفين، وجعل مشين .

ولقد حظيت قضية المرأة منهم بالبيان الشافي، اذ كانت محور الجدل الذي أداره الخصوم حول الشريعة الاسلامية، وعدم

صلاحيتها للحكم في العصر الحاضر الذي انتشرت فيه الحرية والمساواة، وشاركت المرأة الرجل في مسؤولية بناء الأسرة وتقدم المجتمع، قائلين: ان تشريع الطلاق وتعدد الزوجات وتنصيب الميراث مما غمطت به الشريعة الاسلامية حقوق المرأة، وجعلت منزلتها دوك الرجل، فضلا عن تهديده الدائم للحياة الزوجية بالانفصام، واحتدام الخصام، وفقد معنى السكنى والمودة في البيت الذي يقوم على هذا الاساس، الى آخر ما تنادوا به من هذه الترهات.

وكان الرد في المستوى المطلوب، وكان ما كتب من حقوق المرأة في الاسلام، مما يشرف هؤلاء الاعلام ويظهر عظمة الدين الحنيف الذي رفع من شأن المرأة بما لم تعرفه في عهد من اليهود القديمة والحديثة على السواء فحين كان احد المجامع العلمية في اوربا يبحث في المرأة هل لها روح أم لا، كان الاسلام يعلن ان الجنة تحت اقدام الامهات، وان خير الرجال خيرهم لاهله، ويقول كتابه العزيز في معادلة حقوق النساء لواجباتهن: «ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف» أما الطلاق فهو تشريع رحيم، كثيرا ما يكون في صالح المرأة، وقد برهنت الحوادث على ذلك، فلم تبق هناك حاجة الى إقامة الدليل على حكمة مشروعيتها، خصوصا بعد الازمة السياسية التي هاشتها ايطاليا أخيرا مدى سنة كاملة من أجل الاعتراف به .

وذلك مثل الربا الذي بقى مثار النزاع والبلبله في الاوساط المالية والاقتصادية الاسلامية، اغترارا بما روجته الرأسمالية الاجنبية من انه لا ازدهار ولا رفاهية الا بتعاطيه، حتى قامت النظم الاشتراكية والحكومات المنبثقة منها وأفعته، فأيدت بذلك نظر الاسلام اليه، وصح فيه القول «ان الله يؤيد هذا الدين برجال ليسوا منه» .

والقول في تعدد الزوجات مثل القول في الطلاق، فإنه في صالح المرأة أكثر مما هو في صالح الرجل، ذلك أنه قائم بالفعل، في كل مكان ومنتشر بالخصوص في المجتمعات الحضرية، لأسباب اقتصادية وجنسية، ولكن على هامش القانون، فالضحية الأولى فيه هي المرأة ثم الأولاد الذين لا يعترف المجتمع لهم بحق مادي ولا معنوي . . فالإسلام أضفى عليه صفة المشروعية، وأنقذ المرأة من ذلك الواقع السيئ، وحفظ لها شرفها وحقوق أولادها في الإرث والنسب، وزاد بطهارة المجتمع من الانحلال الخلقي وعوامل الفساد .

أنه حل الإسلام لهذا المشكل، وليس عند المعترضين حل أفضل منه، فلقد قال أميل لودفيج الكاتب الألماني المعروف، أن أوروبا سائرة نحو اقرار التعدد إن قريباً أو بعيداً . . .

ولعل القول في نقصان ميراث المرأة المسلمة، كان أهون ما واجهه المدافعون عنها، ما دام في قوانين المهاجرين ما يورث الابن الأكبر فقط، وما يسوى بين الورثة مع اختلاف مقاماتهم، فربما بخس المرأة أكثر مما ينتقدون من بخس الشريعة الإسلامية لها، هذا في حين أن المرأة في الإسلام لها من حق التصرف في مالها باستقلال عن زوجها وقرابتها ما ليس للمرأة في أكثر القوانين الأجنبية، ونفقتها إلى حد إعدامها (1) واجبة على الزوج ولو كانت غنية وهو فقير، وزواجها لا يتم إلا بمهر يدفعه الزوج، وفي تلك القوانين تدفعه هي، فحتى الآن وبعد ما زعموا من مساواة المرأة العصرية للرجل، ما يزال حق المرأة في الشريعة الإسلامية أعظم، ومكانتها أكرم .

(1) أي أن يجعل لها خادماً

ومن الجدير بالذكر ان الاستاذ محمد فريد وجدى خص المرأة المسلمة بكتاب قيم، حرص فيه على المقارنة بينها وبين المرأة في العالم الغربي المتمدن، فوصف ضروب الشقاء التي تعانيها المرأة الغربية من جراء مجابهة مطالب الحياة المصرية بحكم حريتها المزعومة ومساواتها للرجل، وما تنعم به المرأة المسلمة من سعادة وهنا بسبب حماية الاسلام وشرعه الحكيم لها .

وبالجملة فقد اخذت قضية المرأة حظها الكامل من الدراسة في هذه الردود، وابان العلماء في تناولهم لها عن بعد نظر واجتهاد في تحليل الاحكام الشرعية المتعلقة بها على وفق التطورات الاجتماعية الجديدة، فأسكتوا المتقولين، واقنعوا المتطلعين، واثروا الفكر الاسلامي ايما ثراء، في هذه الناحية التي هي شطر الدين على حد ما جاء في حديث «خذوا شطر دينكم عن هذه الحميراء، يعني عائشة، وذلك لان المرأة نصف الرجل، والنساء شقائق الرجال في الاحكام، فالحاجة كانت جد ماسة الى عرض موقف الاسلام منهن، وبيان الاصلاح العظيم الذي جاء به فيما يخصهن، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من يحيى من بينة، وقد كانت تلك الاحكام مقررة في الشريعة ولكنها غمر موجهة هذا التوجيه المصري، ولا مقارنة بما يقابلها في القوانين الحديثة والشرائع المتقدمة، فوقع تقريرها بهذا الاسلوب الحكيم بردا وسلاما على قلوب المؤمنين وخسأ الذين سفهوا انفسهم بما كانوا يفترون، (يريدون ان يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون).

☆☆☆

نعم هكذا كانت الانتفاضة الاسلامية الاولى واعدة، ومتعاطفة مع آمال المسلمين في مستقبل زاهر للاسلام وبتمكنة من وسائل دعم دولته وتجديد دعوته، الا ان تقسيم الوطن الاسلامي الى

دويلات اشبه بسدول الطوائف وقيام اغلب هذه الدول على نظم للحكم ومذاهب سياسية مستوردة. حال دون ذلك، وبقي الفكر الاسلامي مائما تتقاذفه التيارات الاجنبية، لا يأوى الى ركن يسنده، ولا يمد احد اليه يدا بنجدة او انقاذ . . .

وهذا هو ما أشرت اليه من قبل من ان الاتجاه السياسي للإصلاح الاسلامي الذي دعا اليه المجدد الاول السيد جمال الدين الافغانى قد انصرف المسلمون عنه بعوامل مختلفة، وتحت ضغوط داخلية وخارجية. فبالرغم من ان صوتا آخر من أجهر الاصوت، كان قد ارتفع بهذه الدعوة، وهو صوت السيد عبد الرحمن الكواكبي صاحب كتابي طبائع الاستبداد وأم القرى، وان صداها لم يزل يتردد بين جنبات العالم الاسلامي من طرف دعاة كبار كالامير شكيب ارسلان والشيخ حسن البناء والسيد أبي الاعلى المودودي والاخ غلال الفاسي وسواهم، فان أكثر زعماء الأحزاب السياسية والحكام الذين قاموا في البلاد الاسلامية بعد القضاء على الخلافة العثمانية، كانوا متشبعين بأفكار وايدولوجيات أخرى، حرصوا كل الحرص على تطبيقها من غير نظر في موافقتها او معارضتها للإسلام . . . وكان الذي يغامر بانتقادهم وبطالب باقامة حكم نابع من دستور الاسلام الخالد وهو القرآن الكريم والسنة النبوية يستهدف لسخرية العملاء والدلائل ونيزه بأقبح النعوت كالجمود والتزمت وهدم التفتيح على العصر الذي يعيش فيه، وهذا ان لم يتعرض لللائى والعقاب من طرف رجال الحكم أنفسهم .

وننتج عن ذلك ان كثيرا من الحكام لما رأوا نمسك شعوبهم بالاسلام، وتغير قلوبهم عليهم، صاروا يملقون العامة ببعض المظاهر الاسلامية، واوعزوا الى انصارهم وصنائعهم بالعمل على

إلباس تلك الافكار والايديولوجيات لباس الاسلام، وادعاء انها هي المفهوم الحقيقي للمدين الحنيف الذي اخطاه السلف والخلف، ولم يستتب معناه الا لهؤلاء القادة الابرار والساسة الاحرار .

ومن المؤسف ان يقع بعض الكتاب المخلصين في هذه الخدعة، ويوالوا نشر المؤلفات التي تضرب على نغم جميع المذاهب المستوردة، حتى لنخشى ان نصبح الشيوعية الماركسية واللينينية اسلما صحيحا مؤيدا بالنصوص واعمال بعض رجالات السلف الصالح.

ولا شك في ان هناك ضغطا خارجيا على بعض الحكام المسلمين الذين يتبنون هذه السياسة او تلك، الى جانب ايمانهم بجوداها دون السياسة الاسلامية، وان ما يعبر عنه بالمساعدات المشروطة، ان كان انما يهدف في الظاهر، الى حماية مصالح الجهة التي تبذل تلك المساعدات، فانه في باطن الامر، لا يعدو ان يكون توجيها سياسيا وضغطا على اتباع مذهب هذه الجهة او عدم مخالفته على الاقل .

وهذا هو التفسير الواقعي لحملة الابداء التي تعرضت لها احدى الهيآت الاسلامية الكبرى في بلد شقيق قبل بضع سنوات. وقد يكون بعض الحكام ممن لا يهتمون بشؤون الدين، فيفتنهم خصوم الاسلام الفرصة ويعملون على نشر مبادئهم، ومحاربة عقيدة الاسلام، كما حصل في افدونيسيا لما اصبح الحزب الشيوعي فيها اكبر حزب في العالم ينتمي الى هذا المذهب، خارج بلاد الاتحاد السوفياتي .

والناس يتعجبون من انقسام دولة باكستان، ونجاح دعوة الانفصال فيها، مع انها دولة انما قامت على اساس الفكرة الاسلامية والاخوة الدينية، ولكنهم ينسون ان هذه الفكرة منذ كانت وهي

ملاحظة من خصوم الاسلام وعاربة بطرق خفية ومكشوفة، فالمكشوفة هي التي تسير عليها سياسة الهند الوثنية، والخفية هي التي استخدمتها الهيآت المشبوهة بعد فتور الحماس الديني لباكستان الاسلامية

الذي كان يتصف به حكامها الاولون فما زالت تقتل في الذروة والغارب بنشر المذاهب السياسية التي اشرنا اليها مرارا وان لم نسمها، للعلم بها، وتأسيس الاحزاب التي تحمل فكرة التقدمية وما اليها وتعارض فكرة الاسلام، فلم يكن الا كلا ولا، حتى انتشرت دعوتها بين الشباب والعمال والجمهير الشعبية، لا سيما ودعاة الفكرة الاسلامية مبعدون وعاريون، وهم بحكم نزاهتهم واستقامتهم

لا يمدون ايديهم الى الخارج، في حين ان الاحزاب الاخرى تتدفق عليها الاعانات وتلقى التأييد المعنوي في كل مناسبة. فلما جاءت مناسبة تلقى التأييد المادي اعلنوها حربا شعواء على الاسلام ودولته الكبرى، ونفككت تلك الرابطة، وقضت شهوة الحكم واهواء الذهن باعوا انفسهم للشيطان على مجهودات نصف قرن او اكثر لحماية الفكر الاسلامي الذين عملوا على انشاء باكستان.

ان الاحزاب السياسية التي كانت تعمل في الهند بحسب مخطط اسلامي هادف، والتي كانت تحارب من قبل الانجليز، قد لوحقت في باكستان، ونصب على رأسها اناس لبيسوا في المستوى فصبغت بصبغات مستوردة ولما تمكنت من الاعلان عن نفسها، اظهرت خبيثها، فتكشفت الرغبة من الصريح، وتبين الصبح لذي عينين .

فالانحراف من خط الاسلام هو الذي قسم باكستان شطرين، ولو أنها استمرت في بناء كيانها على الاساس الذي قامت عليه،

لما كان مستبعدا ان يأتي الوقت الذي تنضم فيه اليها الستون مليون مسلمة الباقية في الهند تحت سيف التهديد والوعيد، لا ان تنفصل عنها البنغال .

ان الاسلام لا يقبل المزاحمة، فاما عقيدة اسلامية، وشرعية اسلامية، واخلاق اسلامية، في دولة اسلامية تحمي هذه القيم من التزييف والتحريف، واما هذه الفوضى والتمزق الذي يعيش فيه المسلمون، وبدعهم بالخنوع والاستسلام، فما ينهضون من نكسة الا ليقعوا في نكسة أعظم . . .

واذا كان تقسيم العالم الاسلامي الى دويلات مدنية، هي المسؤولة عن إيقاف المد الاسلامي الاول، على ما بيناه آنفا، فان العلماء الذين يتواطؤون مع هذه الدويلات في التمسكين للنظم المستوردة، والنسخ (الكوبيا) من المذاهب الاجنبية، وتزكيتها بنسبتها الى الاسلام أو نسبة الاسلام اليها، هم المسؤولون عن تعويق المد الاسلامي الجديد الذي يهدف الى قيام دولة اسلامية بكل معاني الكلمة، وابعادها ويضع فكرة السيد جمال الدين موضع التنفيذ،

فعلى هؤلاء ان يهتدوا بالدعاة الاولين الذين ارتفعوا بالاسلام عن أي تبعية أو اندماج، ويجعلوه هو الحكم الذي ترضى حكومة والمرجع الاول والاخير في كل مشكل، صادرين عن قوله (ص) فيما ينبغي ان يكون عليه علماء الاسلام: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين، والتحالف المبطلين وتأويل الجاهلين» .

وعلى الحكومات التي تقوم في مختلف البلاد الاسلامية أن تجرب سياسة الاسلام والحكم بشريعته، والتمهيد للعقيدة الاسلامية والاخذ بيد دعاة الفكر الاسلامي الصحيح، الذين هم آخر من

ينزع يدا من طاعة، لان نظام الحكم في الاسلام قوامه السمع والطاعة، وعدم منازعة الامر أهله، ومن خرج من السلطان شبرا مات ميتة جاهلية كما في الاحاديث الصحاح، فما تخشاه من انتشار الدعوة الاسلامية، وقوة الهيآت المتقدمة بالاسلام، وعودة السلطان الاسلامي، انما هو وهم وتسويل من الشيطان، وايحاء ودس من الدول الاجنبية التي يهتمها بقاء نفوذها سارى المفعول في كل بلد اسلامي لتشمل انبعاث الجامعة الاسلامية العكبري التي تعد خطرها اعظم من خطر الحرب الذرية . . .

ولا دليل على براءة الحركات الاسلامية من الشعب والشبهة اكبر من أن الانقلابات الحكومية التي وقعت في أي بلد اسلامي خلال القرن، اعتبارا من الانقلاب التركي، لم يكن القائمون بها من العناصر التي تتخذ الاسلام شعارا لها، ولو على سبيل الدعاية، وأن الاحزاب السياسية المعارضة التي توجد في البلدان الاسلامية ولا سيما العربية ليس فيها حزب واحد ذو نزعة دينية، فليضع الحكام اذن يدهم في يد دعاة الاسلام بملء الايمان والثقة، وليرفعوا معا راية الاسلام، فان مستقبل هذا الدين الحنيف بين أيديهم، وان الله سائلهم عنه لا محالة : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين) .

عقيدة المرشدة للمهدي بن تومرت

طغى الجانب السياسي على الجانب العلمي من ترجمة المهدي بن تومرت صاحب دعوة الموحدين، حتى كادت شخصيته العلمية تذوب في شخصيته السياسية. وبالفعل فإن المؤرخين والكتاب الذين تناولوا ترجمته بالنقد والتحليل، لم يعنوا إلا بأعماله السياسية ومعاركه الحربية، والخطوط التي وضعها لتأسيس الدولة التي قضت على دولة المرابطين . وفي ظني أنهم لو عنوا بالناحية العلمية من حياته، وقدروا جهوده في نشر المعرفة ودرسوا انتاجه الفكري حق الدراسة، لخرجوا بنتائج رائعة في التعريف بالرجل وتجليه شخصيته، وانصافه من الاحكام المبتسرة التي تسجل عليه من غير قرو ولا تحقيق، وان كان العلامة ابن خلدون لم يغفل هذه الناحية، ولذلك جاء رأيه في المهدي على جانب من العدل والانصاف .

على أن السياسة حقا قد طغت على أعمال المهدي بعد انصرافه للدهوة . واشتغاله بتدبير امر أتباعه وانصاره، وقورطه في حرب المقاومة، ولولا ذلك لا قانا منه علم غزير وانتاج كثير، لانه كان إماما من ائمة العلم والدين، ذا ملكة راسخة وقوة على النظر والجدل، بهيمت بضاهي كبار الشخصيات العلمية البارزة التي ظهرت في المشرق لعنده من أصحاب المقالات والمدارس في علمي الاصول والكلام، فضلا عن تضلعه في الفقه والحديث .

وقد خرج لطلب العلم من بلده سوس سنة 500 وهو ابن خمس عشرة سنة، ولا شك أنه توقف في مراكش وأخذ بها عن بعض شيوخها ان لم يكن قد مر بفاس واشتغل فيها على علماءها العديدين، ثم دخل الاندلس فنهل بها ما بل من ظمأه العلمي، وجاز البحر من المربة في مركب إلى المشرق كما يقول ابن القطان . وهناك تعمق في الطلب، وأشبع ذهنه من العلم ولقاء المشائخ . وكان ممن لقي من كبار العلماء في الاسكندرية أبو بكر الطرطوشي، وفي بغداد الكيا الهراسي (1) وأبو حامد الغزالي على ما جزم به أكثر المؤرخين، وزاد ابن أبي زرع أنه لازمه ثلاث سنين، حج وأقام بمكة مدة، ودامت رحلته ما يزيد على عشر سنوات .

ولسنا بصدد التعرض لما يتعلق بعمله السياسي فيما بعد، وان كانت الروايات عن نشأته ورحلته لا تفتأ تربط بين أحواله في هذا الطور من حياته، وبين ذلك العمل العظيم . على أن اهتمامه بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومجازفاته في سبيله، هو في نظونا مما يرجع الى غيرته الدينية، ويقظة ضميره أكثر مما يرجع الى فزعة سياسية كما نبهنا عليه في غير هذا المقام، فأحرى بنا أن لا نعدل به عن هذا التوجيه ونحن لا نستعرض إلا الجانب العلمي من ترجمة صاحبنا ابن تومرت .

ويشير ابن خلدون الى عودة المهدي من رحلته المشرقية، وما جناه فيها من الثمار البانعة، وما صار له من شغوف في العلم

(1) الكيا بغسر الكاف هو أبو الحسن علي بن محمد الطبري، نقل ابن خلكان عن عبد الغافر الفارسي فيه أنه كان ثاني الغزالي بل أصل وأصلح وأطيب في الصوت والنظر .

والمعرفة بالآراء والمذاهب، وما قام به من دعوة صادقة لتنبيه مواطنيه المغاربة الى الاشتغال بالعلوم العقلية، والنظر في أقوال علماء الكلام، وخاصة الاشاعرة منهم، إذ كان مذهبهم غير رائج في المغرب ولا بلغ اليه صدى المناظرات العظيمة القائمة بين أئمتة في بلاد المشرق . . وذلك في فذلكة عظيمة القيمة بالنسبة الى بحثنا هذا وهي قوله :

« وانطوى هذا الامام راجعا الى المغرب بجرأ متفجراً من العلم، وشهابا واريا من الدين، وكان قد لقي بالمشرق أئمة الاشعرية من أهل السنة، وأخذ عنهم، واستحسن طريقتهم في الانتصار للعقائد السلفية، والذب عنها بالحجج العقلية الدافعة في صدر أهل البدعة . وذهب الى رأيهم في تأويل المتشابه من الآي والاحاديث بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن أتباعهم في التأويل وقرار المتشابهات كما جاءت، ففطن أهل المغرب لذلك، وحملهم على القول بالتأويل والاخذ بمذاهب الاشعرية في كافة العقائد، وأعلن بامامتهم، وألف العقائد على رأيهم، مثل المرشدة في التوحيد . وكان من رأيه القول بعصمة الامام على رأي الامامية من الشيعة وألف في ذلك كتابه في الامامة الذي افتتحه بقوله : أعز ما يطلب ، الخ .

ففي هذه العبارات الموزونة، تقدير لشخصية الرجل العلمية، وتحديد لنوع الدعوة التي جاء يحمل لواءها حتى ذاعت وانتصرت، وتنصيب على الجنوح الذي ارتكبه في هذه الدعوة، ومال به عن رأي أهل السنة من أشاعرة وغيرهم .

أما الشخصية العلمية التي اثبتتها للرجل فقد قلنا كلمتنا فيها، وبأقينا مزيد تقرير لها وتأكيد عليها .

واما دعوته التي قام بها وروج لها من الاخذ بمذهب الاشعرية في العقائد والاحتجاج عليها بالعلوم النظرية، فالامر فيها يحتاج الى شيء من البيان والتوضيح . ذلك ان اهل المغرب لعهد المهدي ورجوعه من رحلته المشرقية، كانوا إلا قليلا منهم على مذهب السلف في الاعتقاد بظواهر النصوص والصفات الواردة فيها من غير تأويل ولا صرف لها من مدلولها اللغوي، مع التنزيه للخالق عز وجل وذاته العلية عن ان تشبه الذوات وتتصف بصفات المخلوقين، وذلك هو المذهب الذي عبر عنه الامام مالك متبوعهم في الفقه والاحكام الشرعية بقوله للمذي سألته عن الاستواء في قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » الاستواء معلوم والكيف مجهول . وكذا القول في الوجه واليد والعين والنزول والمجيء . والضحك وغيرها مما ورد اطلاقه على الله سبحانه وتعالى في الكتاب او السنة، فانهم يبرونه على ظاهره، ولا يؤولونه بالذات او القدرة مثلا فرارا من الافتيات على الشارع الذي عبر بذلك، ولكنهم يعتقدون التنزيه ومخالفته تعالى للحوادث، فلا يلزم على الايمان بظواهر تلك النصوص اي محذور .

هذا هو الموقف الذي كان المغاربة يلتزمونه في العقائد ابان ذاك، وهو كما علمت مذهب السلف الصالح من ائمة المسلمين، فالقول بأن المهدي وجد علماء المغرب على حالة من الجبود وعدم استخدام العقل، وببذ النظر كما يقع في كلام بعضهم، هو من الغلو والمجازفة، والقاء الكلام على عواهنه . . فإن هذا المذهب ايضا قائم على الحجة، ونظر العقل وترجيح انه مقصد الشرع ومراده، وان العدول عنه بالتأويل والتوجيه مخالفة لذلك المقصد، وعدول عن ذلك المراد .

نعم، لما انتشرت المذاهب الفلسفية في المشرق، وكثر
الجدال بين أهل الملل والنحل غير الإسلامية وبين المسلمين،
وكان المنكرون من علماء الاسلام على الوثنيين ومباد الاصنام
يسخرون من عقولهم، ويعيبونهم بعبادة آلهة مثلهم مخلوقة، لا
تملك لانفسها نفعا ولا ضرا، فان هؤلاء جعلوا يهتمون المسلمين
بالتجسيم وعبادة اله على مثال المخلوقات ذي وجه ويد وعين،
ونظراً عليه الانفعالات النفسية من الرضا والغضب، وما الى ذلك،
ولا يخلو من الاعراض الجسمية كالحركة والسكون، وتسربت
هذه الوسوس الى عوام المسلمين، ولم يستطيعوا التخلص من
بوائقها، فقام أئمة الدين وحفظة العلم من الاشاعرة والماتريدية
وبقية علماء الخلف السنيين برد هجوم هؤلاء الملاحدة والمتنطعيين،
والدفاع عن حقيقة الدين وبيضة الاسلام، ومجادلة أرباب المذاهب
الفلسفية، والدعوات المناهضة للحق بمثل الطرق التي يستعملونها
في الطعن على الاسلام، والاساليب النظرية التي يهاجمون بها
عقائده، وكان مما استحدثه الاشعري ومن أخذ بطريقة تأويل
بعض الصفات والاقوال الموهمة، التي لا تستطيع العامة أن تتخلص
من اعتقاد لوازمها، فقالوا في الاستواء على العرش، انه الاستيلاء
والظهور والغلبة، أخذوا من قول الشاعر :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهوراق

كما قالوا في الوجه، انه الذات وفي العين، انها الرعاية
والحفظ، وفي اليد، انها القدرة وفي النزول، انه الامتنان الى
غير ذلك مما هو معروف، وقصدهم بالاول وبالذات، انما هو
المحافظة على عقائد العامة والمسلمين الذين دخلوا في الاسلام

حديثاً من أهل الملل المجسمة وأشباههم، وهو اجتعاد على كل حال أوجبته الضرورة، وأملأه الموقف الذي كان عليه أمر الاعتقاد في المشرق الاسلامي . أما في المغرب فلم تدع لذلك ضرورة ولا جد موقف غير الذي كان عليه الحال أيام السلف، فلم يكن ثم لزوم بل ولا مبرر لرواج هذه البدعة، ولذلك قاومها العلماء المغاربة بنصح وإخلاص .

وقلنا آنفاً، ان أهل المغرب إلا قليلاً منهم كانوا على مذهب السلف، ونحن نعني ما نقول، فلم يكن المهدي هو أول من تكلم في مذهب الأشعري أو دعا إلى تأويل النصوص في المغرب، بل سبقه بعض أهل العلم لذلك، ولا سيما في سبتة وفاس على ما بيناه في غير هذا البحث، ولكن هذا المذهب لم ينتشر ويسد على مذهب السلف، إلا بعد قيام المهدي بدهوئه التي جند لها جنوده، وحمل الناس عليها بدون رفق ولا هوادة، وساعده على ذلك، أنه كان قد انتشر في المشرق، وأصبح المذهب السائد الذي هزم مذهب أهل الاعتزال على ما كان له من التمكن والسلطان .

ومما لا شك فيه أن المهدي قبل رحلته رأى ما تعرض له كتاب الأحياء للغزالي من الأحراق والأتلاف في المغرب والاندلس، ووعى الحملة الشعواء التي شنّها عليه علماء الأندلس والمغرب، والتي تزعمها القاضي ابن حمدين قاضي قرطبة، وهو أكبر شخصية علمية في مملكة المرابطين يومئذ، وكان مما ينكر على ذلك الكتاب، مسائل في العقيدة خالف فيها كثيراً من المسلمين عند أهل السنة، فكان من وكده في رحلته التحقق من هذه المسائل والتعرف على الحياة العلمية، والاتجاهات العقيدية في المشرق، وهذا في نظري مما يرجح لقاء المهدي

للغزالي وهذا ايضا هو ما غرس في نفس ابن تومرت بذور الثورة على الواقع المغربي، وجعله يقوم بدعوته المكتسحة لكل مخلفات تلك الحملة التي احرق بموجبها كتاب الغزالي، من مذهب السلف في العقائد، ومذهب الامام مالك في الفقه، وان كان قد نجح في الانتصار على الاول ولم ينجح في الانتصار على الثاني.

بقي الكلام على النقطة الثالثة من مقالة فيلسوف المؤرخين، وهي المتعلقة بجنوح صاحبنا الى مذهب الشيعة الامامية في القول بعصمة الامام، وهو امر محير حقاً، فإن المذهب العقدي الذي التزمه وهو الاشعرية، والعلماء الذين اخذ عنهم واتصل بهم في رحلته، وحياته العلمية وسلوكه في الدعوة من اول ما بدأ، كل ذلك كان حرياً ان يجافي بينه وبين هذه النظرية، ويجعله إلباً عليها لامعها . ولكن قبح الله السياسة، فهذا الرجل الذي كان همه الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، اينما حل وارتحل، وكان ينكر على الولاة واولى الامر تعاطيهم وتعاليمهم على الناس، والذي قامت دعوته على التوحيد الخالص المدعم بالادلة النظرية، والحجج العقلية، يتورط في هذه العضيضة، ويدعى لنفسه ما لم يسلم لمن هو اكبر منه شأنًا واعظم قدراً، ثم يزيد فيزعم انه المهدي المنتظر الذي يملأ الارض عدلاً كما ملئت جوراً على حسب ما ورد في الحديث الشريف . وذلك لتكثير الاتباع والانصار، والتأثير على عقول السذج والعوام، لما رأى انه لا مفر له من مصاولة خصومه ومنازلتهم في ميدان الحرب والقتال .

فالامر إذن يتصل بحركته السياسية، وتمهيده للدولة التي عنى بانفائها لما قوى عزمه على مقاومة المرابطين بالسلاح . فلندع السياسة جانباً، ولنعد إلى بساط العلم الذي يعنينا . ولكن

لا بد ان نشير الى ان اخذه بهذا الرأي الشيعي قولاً وعملاً كان متأخراً عن المدة الاولى التي ظهر فيها بدعوته المتمحضة الامر والنهي والتوحيد، بدليل انه في مجادلاته ومناظراته للعلماء بالمجلس الذي عقده له امير المسلمين علي بن يوسف في مراکش وغيره، لم يفه بشيء من ذلك، ولا حكى احد عنه ما تشم منه رائحة التشيع او دعوى المهدوية، ثم ان رسالته في الامامة التي صرح فيها بهذا الرأي، واكدته بمختلف العبارات هي ايضا مما يدل على ذلك، لانها جاءت مقترنة بالدعوة الى القتال لنصرة الحق، واظهار السنة مع الامام المهدي القائم بالحق، والناصر لدين الله ووجوب طاعته واتباعه، وعدم مخالفته فيما قل أو جل، الى آخر الالتزامات المشددة التي تقررها الرسالة، وهو امر لم يرد في كتبه ورسائله السابقة عليها، فدل على أنه امر محدث، اوحى به السياسة، او اقتضاه الموقف الجديد الذي ادى بآبن تومرت الى اعلان الحرب على خصومه .

وهذه الرسالة التي تناولت قضية الامامة والعصمة والمهدوية، هي رسالة مستقلة عن كتاب اعز ما يطلب الذي لا شك أنه كان من أوائل تأليفه، ولذلك فانه يعد كتاباً تعليمياً خالياً من الشعوذة كسائر كتبه التي وضعها في مبدأ أمره، وقد نوه فيه بقدر العلم، وحث على طلبه، وقعرض لمساائل من طرق العلم وأبواب من أصول الفقه، وبناه على المناظرة التي جرت له بأغماط، وليس فيه كلام على الامامة وما يتعلق بها، فقول ابن خلدون في النص المتقدم منه : « وكان من رأيه القول بعصمة الامام، على رأي الامامية من الشيعة، وألف في ذلك كتابه في الامامة الذي افتتحه بقوله اعز ما يطلب ، فيه تساهل كبير، لانه

يعتبر مجموع تآلفه المبدوء بكتاب أعز ما يطلب، والذي من ضمنه رسالة الامامة هذه كتابا واحداً، وليس الامر كذلك، فإن هذا المجموع كما طبعه كولد زهير يحتوي على عدة كتب ورسائل للمهدي، ولا يمكن أن يعد كله كتابا واحداً فمن نتيجة التفريق بين هذه المؤلفات، اهتمدنا إلى أن اعلانه برأيه هذا في الامام وعصمته كان متأخراً عن مبدأ قيامه وظهور دعوته، ونلك نتيجة ليست بقليلة الاهمية .

ومما يجب التنبيه إليه، أن القول بوجود نصب الامام وعصمته كان هو نصيبه من التشيع، أو من مذهب الشيعة الامامية على الاصح، وبعده لا نجد له أي صلة بهذا المذهب، ولا ميل إلى التشيع في قول ولا فعل . . فتشيعه هذا كان سياسيا واستقلالا لقول من أقوال الشيعة، يتعلق بالحكم أكثر مما يتعلق بالعقيدة والاحكام، ولذلك قال ابن خلدون فيه : « ولم تحفظ عنه فلتة في البدعة إلا ما كان من وفاقه الامامية من الشيعة في القول بالامام المعصوم » وهي كلمة صحيحة إلى أبعد حد .

ويقتضينا التعرض لحياة ابن تومرت العلمية، أن نلم بذكر مؤلفاته التي وصلت إلينا، والتي يشكل أكثرها املاات صدرت عنه أيام تصديه لتعليم أصحابه، وثقيف طلبة الموحدين، من عبد المومن خليفته، الذي لقيه بقربة ملالة وهو بصدد الرحلة في طلب العلم، فقال له : « لقيت علما وشرقا ، فمن دونه . وهي ما بين كتب ورسائل صغيرة تؤلف المجموعة الآتية :

- 1 - أعز ما يطلب، وقد ذكرناه وبه تسمى المجموعة .
- 2 - كتاب الصلاة وضمنه أحكام الطهارة بتفصيل واف من الحديث والاثار . ولذلك أمر المنصور الموحدي بجمع أحاديث

في الصلاة على النحو الذي فعله ابن تومرث في الطهارة .

8 - رسالة الدليل على أن الشريعة لا تثبت بالعقل، أو هي رسالة القياس، وفيها رد على المعتزلة في تحكيمهم العقل، وبذلك ينتفى عنه ما نسب إليه من الاعتزال، وأثبت القياس الشرعي، وبها حكمنا أن الموحدين لم يكونوا ظاهرة كما ينسبهم من يتساهل في تحقيق أمرهم .

4 - رسالة في العموم والخصوص، وبعض المباحث الأصولية .

5 - رسالة في طرق العلم .

6 - رسالة في تقسيم المعلومات .

7 - رسالة المحدث بفتح الدال وهي مباحث من علم الكلام .

8 - رسالة العبادة والاحتجاج على وجوبها .

9 - عقيدة التوحيد .

10 - عقيدة المرشدة . وتمتاز الاولى عن الثانية باشتغالها على الدلائل العقلية بطريقة الاشاعة وهي أكبر منها .

11 - رسالة الامامية وقد ذكرناها .

12 - رسالة القواعد وفيها كليات صالحة في الشريعة، ولكنها تشتمل على امور منكرة من التشديد في الدين ووجوب الايمان بالمهدي وعصمته (1) .

13 - رسالة في بيان طوائف المبطلين من الملتزمين والمجسمين، وأمرها واضح .

(1) وهاتان الرسالتان هما مما دونه بالعربي والبربري حسب كتاب الحبل الموشية .

14 - رسالة فيما بشر به النبي (ص) من ان طائفة من امته لا تزال على الحق .

15 - رسالة في فضل التوحيد والاستدلال عليه من طريق النقل.

16 - كتاب الطهارة ويتضمن بعض احكامها من الحديث النبوي، ويظهر لنا ان الموضوعين الاخيرين وما يتلوهما في المجموع إلى ص 362 من حديث رفع العلم والامانة وغير ذلك، هو ما عبر عنه في طالع المجموع باختصار مسلم، وان اوهمت العناوين المتميزة انها املاءات مستقلة، وعلى كل حال فهو اختصار موجز على مثال ما فعل ابن ابي جمرة فيما بعد عند اختصاره لصحيح البخاري .

17 - رسالة في ذم الخمر وعقوبة شاربها .

18 - كتاب الجهاد وما ورد فيه من الثواب وهو رسالة متوسطة الحجم، هذا ما تضمنه مجموع اعز ما يطلب من تأليف المهدي بن قورمات كتباً ورسائل، يتخللها بعض الاملاءات الصغيرة في التحميد والتسبيح والثناء على الله عز وجل مما لا يمكن حده من التأليف بالمعني العلمي .

وقد نشر هذا المجموع في الجزائر سنة 1903 بعناية المستشرق كولد زهير مع مقدمة له بالفرنسية .

19 - ومما وصلنا ايضاً من تأليف المهدي كتاب الموطأ المعروف به والمنسوب إليه . وهو كتاب كبير اختصر فيه موطأ الامام مالك بحذف سند الحديث، وضم إليه ابواباً متفرقة، واحاديث كثيرة مما لم يخرجها الامام . وقد طبع في الجزائر ايضاً سنة 1907 ووقع في 738 صفحة .

هذه آثار ابن تومرت العلمية التي إذا اضيفت الى مجهوده العملي

في نشر المعرفة وتعليم الجماهير الفقيرة من أبناء القبائل المغربية،
أزرت أو كادت بأعماله السياسية وما بذله من مجهود في
إنشاء دولة الموحدين .

ونحن يهمنا في هذا البحث من تأليفه عقيدة المرشدة التي
لقيت رواجاً كبيراً في حياته وبعد مماته، وثلقاها أمة العلم
بالقبول، وحكموا عليه من خلالها بسلالة العقيدة وصحة المذهب .

ولا نشك أنها كانت من أول ما أُملي من تأليفه، ولقن
أصحابه من العقيدة على مذهب الامام الأشعري لأنها بمثابة المقدمة
في هذا الصدد من حيث الاختصار وعدم الاحتواء على الأدلة
العقلية التي لا يدركها العموم كما في عقيدة التوحيد، ولأنها
جاءت خالية من كل شبهة، على ما كانت عليه دعونه أولاً قبل
أن يدعى المهدوية والامامة والعصمة، ويتجرد للعمل السياسي الذي
أقام به بناء الدولة الجديدة، وقضى على دولة خصومه المرابطين .

ومن الغريب أن الاشتباه في امر المهدي وعدم التفرقة
بين العهد الأول من حياته الذي كان فيه منقطعاً للعلم لم يتبلس
بشيء من البدع التي أوبقته فيها السياسة، وبين العهد الثاني
الذي هو بخلاف ذلك، حمل بعض العلماء على إنكار نسبة المرشدة
إليه، لأنها عقيدة سنية خالصة من البدعة التي كان عليها ابن
تومرت. ونسوق القضية بجميع ملابساتها كما وردت في الطبقات
الكبرى للتاج السبكي .

قال : « وجدت بخط الحافظ صلاح الدين خليل بن كيكليدي
العلائي رحمه الله : رأيت بخط شمس الدين الذهبي رحمه الله
أنه شاهد بخط سيف الدين أحمد بن المجد المقدسي : لما دخلت
بيت المقدس والفرنج إذ ذاك فيه وجدت مدرسة قريبة من الحرم

(قلت) اظنها الصلاحية، والفرنج بها يؤذون المسلمين ويفعلون العظائم . فقلت سبحان الله . ترى أي شيء كان في هذه المدرسة حتى ابتليت بهذا . حتى رجعت إلى دمشق فحكى لي أن الشيخ فخر الدين ابن عساكر كان يقريء بها المرشدة . فقلت بل هي المضلة انتهى ما نقلته من خط العلائي رحمه الله . ونقلت من خطه ايضا : وهذه العقيدة المرشدة جرى قائلها على المنهاج القويم والعقد المستقيم، واصاب فيما نزه به العلي العظيم . ووقفت على جواب لابن تيمية سئل فيه عنها، ذكر فيه أنها تنسب لابن تومرت، وذلك بعيد من الصحة او باطل، لان المشهور أن ابن تومرت كان يوافق المعتزلة في أصولهم وهذه مباينة لهم انتهى ، وأطال العلائي في تعظيم المرشدة والازراء بشيخنا الذهبي وسيف الدين ابن المجد فيما ذكره . فأما دعواه أن ابن تومرت كان معتزليا فلم يصح عندنا ذلك . والاعلم أنه كان أشعريا صحيح العقيدة . اميراً عادلاً، وداعياً إلى طريق الحق . وأما قول السيف ابن المجد أن الذي اتفق انما هو بسبب اقراء المرشدة، فمن التعصب البارد والجهل الفاسد، وقد فعلت الافرنج داخل المسجد الاقصى العظائم فهلا نظر في ذلك نموذ بالله من الخذلان . ونحن نرى أن نسوق هذه العقيدة وهي . . ولما ساقها قال : « هذا آخر العقيدة وليس فيها ما ينكره سني » .

هذا كلام السبكي المتعلق بالمرشدة مع نقوله المتضاربة حولها، مدحا وذما . . فأما العلائي فانه مدحها وأبلغ في ذلك لحد أنه أزرى بالذهبي وابن المجد لطعنهما فيها، إلا انه ارتاب في نسبتها لابن تومرت، لانه كان يوافق المعتزلة في أصولهم، وقد رد عليه السبكي في ذلك، وذكر انه كان أشعريا صحيح الاعتقاد .

. والمفهوم من كلام العلائي أن شيخ الاسلام ابن تيمية نفسه كان يشك في نسبتها لابن تومرت، ربما لهذه الشائعة عنه من ميله إلى الاعتزال، وهي ليس فيها شيء من ذلك . والجواب عن شكه هذا هو ما اجاب به السبكي عن تشكك العلائي سواء بسواء إلا ان المعروف من مذهب ابن تيمية انه لا يرضى عن هذه العقيدة سواء كانت لابن تومرت او لغيره .

واما الذهبي وابن المجد فانه لا ينتظر منهما ان يثنيا على المرشدة ، ولا ان يقولوا فيها غير ما قاله للخلاف بين الخنايلة والاشعرية الذي كان هو عين الخلاف بين اهل المغرب وابن تومرت، لما ظهر بمذهبه الجديد . وما ألدع ما رد به السبكي قول ابن المجد في المرشدة والبلاء الذي اصيبت به المدرسة بسببها فانه رد يوافق ذلك القول التافه.

لكن اعظم ما يستفاد من كلام السبكي وفقواه هذه، هو أن المرشدة كانت تدرس في مدارس المشرق، ويقوم عليها علماء مثل الامام فخر الدين ابن عساكر شيخ الشافعية في وقته بالشام.

إن هذا مما يبين قيمة هذه العقيدة واهميتها، ويدل على سيرورتها وانتشارها، باعتبارها مقدمة صغيرة في هذا العلم، وخلاصة مفيدة لمذهب الاشعري رحمه الله . ولا شك أنه قرأها عدد كبير من الطلبة وانتفعوا بها وانه كان عليها املاءات وشروح للعلماء الذين اقرأوها، فان شهرتها التي جعلت جملة من اعلام الاسلام يتحدثون عنها ويبدون آرائهم فيها وفي صاحبها، كيفما كانت هذه الآراء، تعطي انها ملأت فراغا في هذا المقام، وشغلت كثيرا من الناس، مدة غير قصيرة من الزمن .

ويوجد عندنا شرح عليها في كراسة ضمن مجموع، اسمه

لأنوار المبينة المؤيدة لمعاني عقد عقيدة المرشدة لمؤلفه أبي
زكرياء يحيى بن الشيخ المدرس أبي حفص عمر بن أبي بكر
المشهور بالتنسي ثم الهتيني، على ما جاء في طالعته، وهو مغربي
على ما يظهر، مما يدل على أنها كانت تدرس في المغرب أيضاً،
لا سيما وهو قد وضعه جواباً لسؤال سائل (1) وهذا ما يقوله في
ذلك : « وبعد كسانا الله وإياك لباس التقوى، وزحزحنا بمنه عن
نار الشهوات والهوى، فأنك سألتني أن أقيد لك على كلام الامام
أبي عبد الله محمد المهدي رحمه الله تعالى في المرشدة ما يحلو
سماه، ويروق دأله، فأجيبك إلى ذلك مستعيناً بالله » وعادة لا
يهتم الناس بأي كتاب ويشرحونه إلا إذا كان متداولاً مقروءاً
ولو بين طبقة خاصة وأهل ناحية معينة .

ويقول هذا الشارح بأثر العبارة السابقة : « مما اجمعت (كذا)
على صحة هذه العقيدة لا غير وإنها مرشدة رشيدة، ولم يترك
المهدي أحسن منها وسيلة، نفعا الله وإياه (بالاصل وإيانا) بعقد
عقيدته الجميلة » وقوله هذا يفيد أنه لم يكن من الطائفة التي
تعتقد المهدي، وقد بقيت هذه الطائفة موجودة إلى زمن اليوسي،
وكافتت تتمثل في الشيخ عبد الرحمن اللجائي المتصوف المشهور،
دفين الجاية وأتباعه، على ما بينه اليوسي في محاضراته كما يفيد
أنه كان يعلم ما طراً على دعوة المهدي من الجنوح عن السبيل،
وما يشوب تأليفه من الشبهة، باستثناء العقيدة المرشدة، فهو يتفق
مع علماء المشرق في هذا الأمر، ويسلك نفس النهج الذي سلكوه
من قبول آثار المهدي التي سلمت من الريبة، وترك ما عداها

(1) يشير هذا الشارح إلى أن هناك من شرح المرشدة غيره، فقد جاء
في أثنائه عبارة تقول : نقل بعض من شرح هذه العقيدة الخ .

أخذاً بمبدأ الإسلام المعبر عنه في الحديث الشريف بهذه العبارة
الفذة : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » وهو المبدأ الذي يقضي
على التعصب، ويعترف بالحق إذا ظهر .

وبهنا ان فنقل من هذا الشرح ما كتبه مؤلفه على قول
المرشدة : « جميع الخلائق مقهورون بقدرته » وهذا نصه :
(الخلائق هم العوالم المذكورة وغيرهم مما لا يعلمه إلا
الله تعالى، وقوله مقهورون بقدرته، أي مغلوبون أدلة لعزة قدرته،
والقهار المستولي والقدرة صفته، فهو تعالى قادر بقدره قديمة، وفي
كلام الامام رد على المعتزلة الذين ينكرون صفات المعاني) الخ .

وقد نقلنا هذه العبارة المبينة لكلام ابن قنبر قصداً
لتصحيح الخطأ الذي وقع فيه السبكي أثناء ترجمته للمهدي فانه
بعد ذلك الدفاع المجيد الذي نفى عنه ما رمي به من الاعتزال (1)
عاد فرماه به هو نفسه في الترجمة التي عقدها له في الطبقات
قائلاً : « ثم صنف لهم تصانيف في العلم، منها كتاب سماه اعز
ما يطلب، وفي عقائد على مذهب الاشعري في أكثر المسائل
إلا في اثبات الصفات، فانه وافق المعتزلة في نفيها » .

وها نحن اولاً، نرى ان المهدي لا ينفي الصفات وانه يقول:
جميع الخلائق مقهورون بقدرته، ويعلق شارحه على ذلك فيقول
انه رد على المعتزلة الذين ينكرون الصفات . فيظهر ان السبكي
لم يتأمل المرشدة على الرغم من كونه اورد نصها في الطبقات،
ونفي عنه الاعتزال في رده على العلاني وقال في المرشدة ليس

(1) سجل السبكي مرة أخرى سلامة المرشدة من الاعتزال في كتابه
« معيد النعم ومبيد النقم » إذ صنفها مع عقيدة الطحاوي وعقيدة القشيري
وعقيدته هو قائلاً إنها جميعاً مشتركة في أصول السنة والجماعة .

فيها ما ينكره سني يعني اشعري، فلعله ذهل عن هذا الاتهام الذي ضمه ترجمة المهدي التي هي في نظرنا ترجمة منهفة لو خلت من هذا التناقض (1).

بقي ان نشير إلى ان أبا سالم العياشي نقل في رحلته خلاصة كلام السبكي في الرد على العلاني على أنه من الفوائد التي علقها من الطبقات الكبرى ولم يعقب عليه بكلمة . ونقول ان اسم المرشدة مأخوذ على ما نعتقد من قول صاحبها في افتتاحها : « أعلم أرشدنا الله وإياك » .

وقد وقفنا على ست نسخ من المرشدة قتماثل فيما بينها إلا واحدة منها هي نسخة مجموع أعز ما يطلب وسليمن ما فيها من الخلاف تعليقا، الاولى نسخة الطبقات، الثانية نسخة أعز ما يطلب، الثالثة نسخة الحلل الموشية، فان هذا الكتاب أثبت المرشدة من كلام المهدي، الرابعة نسخة كتاب سعادة الدارين للنبهاني، فانه أيضا أثبتها معجبا بها، وهذه النسخ الأربع كلها مطبوعة، الخامسة نسخة الشرح الذي تحدثنا عنه، وهي أصح النسخ في نظرنا لان الفاظها مفسرة مشروحة، فهي بعيدة عن الخطأ والتصحيف، السادسة نسخة مخطوطة من الحلل الموشية خاصة، فالجميع ست نسخ اثنتان منها مخطوطتان، قابلناها جميعا وأخرجنا منها النص الآتي .

« أعلم أرشدنا الله وإياك، انه يجب على كل مكلف أن يعلم أن الله واحد في ملكه، خلق العالم بأسره، العلوي والسفلي،

(1) وجاء في الشرح أيضا تعليقا على قول المرشدة : « ليس عليه حق ولا عليه حكم » ما يلي : (وفي هذا رد على المعتزلة اللاتلين بمراعاة الصلاح والاصلاح ووجوب الرزق) ولم ننقله في الصلب لان كلام السبكي قاصر على اتهام المهدي بنفي الصفات .

والعرش والكرسي، والسموات والارض. وما فيهما وما بينهما، جميع الخلائق مقهورون بقدرته لا تتحرك ذرة إلا بأذنه (1) ليس معه مدبر في الخلق، ولا شريك في الملك، حي. قيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، عالم الغيب والشهادة، لا يخفى عليه شيء. في الارض ولا في السماء. يعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين. أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا، فعال لما يريد، قادر على ما يشاء، له الملك والغنى (2) وله العزة والبقاء، وله الحكم والقضاء، وله الاسماء الحسنى (3) لا دافع لما قضى، ولا مانع لما أعطى، يفعل في ملكه ما يريد، ويحكم في خلقه بما يشاء (4) لا يرجو ثوابا، ولا يخاف عقابا، ليس عليه حق ولا عليه حكم، وكل نعمة منه فضل، وكل نعمة منه عدل، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، موجود قبل الخلق، ليس له قبل ولا بعد، ولا فوق ولا تحت، ولا يمين ولا شمال، ولا أمام ولا خلف، ولا كل ولا بعض، ولا يقال متى كان ولا أين كان، ولا كيف كان (5) كان ولا مكان، كون المكان (6) ودبر

(1) تختلف هنا نسخة أعز ما يطلب فنقول ليس له قبل ولا بعد الى قوله ولا كل ولا بعض، ثم نقول لا يتخصص في الذهن الى وهو السميع البصير، ثم تعود الى ما هنا من قوله ليس معه مدبر وقد اعتمدنا ما في بقية النسخ.

(2) في كل النسخ والغنى بالمد وهو تصحيف.

(3) في نسخة الشرح وله الحمد والاسماء الحسنى، وشرح عليها ولكنها زيادة لا توجد في بقية النسخ.

(4) سقط من نسخة أعز ما يطلب قوله يفعل في ملكه ما يريد ويحكم في خلقه بما يشاء وهو ثابت في بقية النسخ.

(5) سقطت كان من نسخة الطبقات وسقطت الجملة كلها من نسخة النبهاني.

(6) في نسخة الطبقات والنبهاني كون. الاكوان.

الزمان، لا يتقيد بالزمان، ولا يتخصص بالمكان، ولا يشغله شأن
عن شأن (1) ولا يلحقه وهم، ولا يكفه عقل، ولا يتخيل في
الذهن (2) ولا يتمثل في النفس، ولا يتصور في الوهم، ولا يتكيف
في العقل، لا تلحقه الاوهام والافكار، جل عن النظر والشبيه (3)
ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير .

-
- (1) ثبتت هذه الجملة فقط في نسخة الطبقات .
(2) في الطبقات وأعز ما يطلب لا يتخصص وفي النهائي لا ينحصر وفي
الحلل لا يتحصل، وآثرنا ما في نسخة الشرح لدقتها .
(3) انفردت النهائية بهذه الجملة وهي في نظرنا مناسبة ولذلك أثبتناها

ابن رشد الفيلسوف فقيهاً

إن الكتابة عن ابن رشد الفيلسوف كثيرة جداً، ومنها دراسات قيمة كتبها مختصون في المادة بحيث أصبحت هذه الناحية من تفكيره وقرائه العلمي متميزة للغاية، ناهيك بما كان لها قديماً من أثر بين في توجيه الحياة الفكرية والعلمية في أوروبا قبل عصر النهضة.

أما ابن رشد الفقيه فقد بقي بمعزل من عناية الباحثين، ولم تزل ثقافته الفقهية ما تستحقه من الوزن والتقدير، حتى تنوسيت أو كادت، وصار وصف ابن رشد بالفقيه يغلب أن يذل على ابن رشد الجد لا على ابن رشد الحفيد صاحبنا. وقد استشعرت ذلك حين كتبت عنوان هذه الكلنة وهممت بتغييره! لولا أنني أعلم أن البساط يعين المراد.

والحق أن ابن رشد الجد كان إماماً من أئمة الفقه المالكي، يؤخذ بقوله فيه، ويعتمد عليه في الفتوى والقضاء، وكتاباه البيان والتحصيل، والمقدمات، من أعظم كتب المذهب وأشهرها عند المالكية، ولم يتردد الشيخ خليل الجندبي صاحب المختصر المبين لما به الفتوى في مذهب مالك، أن يجعله أحد أربعة أقطاب ممن يعول على آرائهم في فقه هذا المذهب، وهم

اللخمي وابن يونس وابن رشد والمازري (1)، فهو إذن صاحب مدرسة فقهية ما تزال معتمدة إلى الآن عند أتباع مالك في جميع العالم الاسلامي، ولذلك لا غرو أن يغطي اسمه إذا وصف بالفقيه على اسم حفيده فلا يتبادر إلى الذهن غيره كما لو كان هو الفقيه وحده .

إلا أننا نعلم أن صاحبنا كان أيضا من أئمة الفقه وأعلام المذهب، وأنه لا يقل كفاءة ولا ينزل مكانة عن جده في العلم بأحكام الشريعة وسائر المعارف الاسلامية، ولقد وصفوه بأخص اوصاف جده من أنه كان مفزع الناس في الفتوى وأن الدراية كانت أغلب عليه من الرواية، فضلا، عن كونه ولي قضاء الجماعة بقرطبة مثله، وهو منصب عال يعطي لصاحبه الاشراف على سائر قضاة الاندلس، وربما خوله حق تعيينهم . فنحن نرى أنه في هذا المقام لم يكن بينه وبين جده فارق ما، غير أن الجدة كان منقطعا إلى الدراسات الفقهية والنظر في أحكام الشريعة، فخلف ذلك التراث الطائل الذي يعتز به الفقه المالكي، والحفيد كان مشاركا في العلوم العقلية والطبية، فتوزعت اهتماماته، وكان إنتاجه في هذه أكثر واخصب، وإن لم يؤت إنتاجه الفقهي من ضعف مادة او قلة في الجملة .

ولقد جاء في ترجمته عند ابن الأبار تبييننا لمتنهاج طلبه وميدان تخصصه : أنه درس الفقه والاصول . وعلم الكلام . . ومال إلى علوم الاوائل وكانت له فيها الامامة دون اهل عصره، وكان يفزع إلى فتياه في الطب، كما يفزع إلى فتياه في الفقه،

(1) ينظر مختصر خليل، المقدمة، ص 1 .

مع الحظ الوافر من الاعراب والآداب (1)، فهو على هذه المشاركة الواسعة والانفراد من بين اهل عصره بالتقدم في العلوم الكونية، كان الناس لا يستغنون عن فقهه وطلب فتواه في النوازل، وما ذلك إلا لما يعلمونه من رسوخ قدمه في المعرفة بأحكام الشريعة وسداد نظره في مسائلها.

وعليه إذا كانت الدراسات العديدة التي وضعت حوله قد اهتمت بفلسفته وحكمته، وشرحت آراءه وما كان لها من تأثير على الحياة العقلية في العصور الوسطى بأوروبا، وكذلك الناحية الطبية من تراثه وخاصة كتابه الكليات قد نالت حظها من البحث، ولم يبق إلا تراثه الفقهي غير مدروس ولا معتنى به، فإن الواجب يقضي علينا أن نلقي نظرة ولو خاطفة على عمل فيلسوفنا العظيم وطبيبنا النطاسي في ميدان الفقه والتشريع، ونعرف قدر الامكان بجهده الكبير في هذا الصدد فنتم حلقات البحث في معارفه المتنوعة، ونسد الفراغ الذي بقي في ترجمته من هذه الناحية. ولاجل أن نحرر الموضوع جيداً، لا بد أن نلم بما كان عليه الوضع الفقهي بالمغرب والاندلس في عهد ابن رشد، نتيجة لقيام دولة الموحدين، لا سيما وهو قد كان على صلة متينة برجال هذه الدولة وعلى رأسهم الخليفان يوسف بن عبد المومن وابنه يعقوب المنصور.

نحن جميعاً على علم بما كان للفقهاء في دولة المرابطين من نفوذ قوي وجاء عظيم ولا نشك في أن ذلك كان من وضع الشيء في محله، وإسناد الامر إلى اهله، فالدولة إسلامية، وحق

(1) التكملة لابن الأبار ج 1 ص 269.

الناس بتولي مناصب الحكم والشورى فيها هم العلماء العارفون بأحكام الشرع، المتفقهون في الدين، تماماً كما يتولى مناصب الحكم اليوم في أغلب الدول امدنية رجال القانون واسانذة الحقوق . وكانت الدولة المرابطية قد قامت على اساس مقاومة البرغواطيين ونحلتهم الضالة، ونشر الدين الصحيح فلا غرو ان تلقى بزمام الامور إلى الفقهاء وتبوؤهم أعلى مقام .

فلما جاء الموحدون، وكان إمامهم المهدي بن تومرت صاحب دعوة وزعيم فرقة، وقد لاقى الامرين من معارضة الفقهاء ومناهضتهم له، نهجت دولتهم سياسة اخرى من تقريب من قبل دعوتهم وإبعاد الفقهاء عن مراكز المسؤولية . ومن ثم صار الفقه الساذج، اكبره واصغره، لا ينفق لديهم، بل صار يتعرض لمناوأتهم والتشريب عليه وعلى رجاله، وما قضية إحراق كتب الفقه المالكي وأمهات دواوينه بخافية ممن له اطلاع على تاريخهم (1) .

وقصدنا بالفقه الساذج الفقه المجرد من الادلة ومدارك استنباط الاحكام وبأكبره علم التوحيد استناداً إلى تسمية ابي حنيفة له بذلك في كتابه الفقه الاكبر، وبأصغره علم الفروع . فإن الموحدين قاموا بالدعوة لمذهب الاشعري في العقائد وروجوا له، وانتقدوا ما كان عليه المغرب ودولة المرابطين من الاخذ بعقيدة السلف، وسموهم المجسمين وسموا انفسهم الموحدون في مقابل ذلك، ثم صاروا يدعون إلى الاجتهاد والنظر في اصول الاحكام من الكتاب والسنة، وينعون على الفقهاء تقليدهم والتزامهم لمذهب مالك حتى تورطوا في قضية الاجراق لكتب المذهب التي المعنا إليها .

(1) ينظر كتاب المعجب للمراكشي ص 278،

ومن الاكيد ان ننبه على انهم لم يكونوا يهدفون إلى إحلال مذهب الظاهرية محل مذهب مالك ولا انهم كانوا يأخذون في انفسهم بهذا المذهب كما قال بذلك غير واحد من الباحثين، وقد ابطالنا ذلك بالدليل القاطع في كتابنا النبوغ المغربي، وإنما كانوا من اصحاب النظر والدليل المتمسكين بالمنطق والبرهان، ولذلك اخذوا في العقائد بمذهب الاشعري ومالوا في الفقه إلى إحياء الاجتهاد .

على هذه الحالة عرفهم ابن رشد، وبدافع من اهتمامهم بالعلوم النظرية والعقلية اتصلوا به، إذ كان إماما فيها ومتفردا بين اهل عصره بإنقائها . وقد حدثنا عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب عن اول لقاء تم بين الخليفة يوسف بن عبد المومن وصاحبنا ابن رشد بتدبير من الفيلسوف ابي بكر بن طفيل، وكان وزيراً ليوسف، فلم تكن مذكراته معه إلا في قضايا الفلسفة ورأى اصحابها في قدم العالم، وكان أن حمله بعد ذلك على تلخيص فلسفة ارسطو وشرح كتبه على ما هو معروف (1).

إذن فابن رشد الفيلسوف هو الذي برز على منصة الدولة، وهو الذي كان على صلة رسمية بالموحدين وأما ابن رشد الفقيه فقد كان يشغل منصب القضاء ويفتي الناس فيما يعرض لهم من النوازل التي لا علاقة لها بأحكام المنصب، وهو بمقتضى ذلك فقيه مالكي على مذهب ابيه وجده، ومذهب المغاربة والاندلسيين عموماً، إذ كانت فرعة الدولة الاجتهادية، تلك التي تحدثنا عنها لم تستطع ان تهزم مذهب مالك ولا ان تتغلب عليه حتى في

(1) انظر كتاب المعجب للمراكشي ص 242 .

قولية مناصب القنوى والقضاء . كما حصل ان تغلب هذا المذهب في اوائل ايام الخلافة الاموية بالانداس على غيره من المذاهب لاصطناع الدولة والتزامها به، وكما حصل في المغرب ايام الادارة الذين كانوا يأخذون ايضا بهذا المذهب .

ولعل الطريقة التعسفية التي كانوا يفرضون بها وجهة نظرهم هي التي جعلت الفقهاء وجماهير المتهذهين ينفرون من دعوتهم ويتمسكون باقباع مالك رحمه الله، لأن احب شيء إلى الانسان ما منعنا هما يقول الشاعر، وإحراق الكتب لم يكن قط وسيلة لمنع انتشارها بل ربما كان سببا في مزيد الاقبال عليها وتداولها . والنظر الفقهي في ايام الموحدين لم يكن قاصراً عن دراسة اسباب الخلاف المذهبي والخلاف العالي، بل كان متمكناً من ذلك اشد التمكن، ومتعمقا في علم الاصول الذي به تعرف مدارك الائمة، وليس من السهل صرفه عما يأخذ به عن حجة ودليل من الرواية والسمع، ويشرح هذا الموقف مناقشة جرت بين يوسف بن عبد المومن وأحد فقهاء اشبهله، ابي بكر بن الجدة، فيما حكاه صاحب المعجب عنه قال :

« لما دخلت على امير المؤمنين ابي يعقوب اول دخلته دخلتها عليه، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس فقال لي يا ابا بكر أنا انظر في هذه الآراء المتشعبة التي احدثت في دين الله رأيت يا ابا بكر المسألة فيها اربعة اقوال او خمسة اقوال او اكثر من هذا . فأني هذه الاقوال هو الحق ؟ وايها يجب ان يأخذ به المقلد ؟ فافتتحت أبين له ما اشكل عليه من ذلك . فقال لي وقطع كلامي : يا ابا بكر ليس إلا هذا وأشار إلى المصحف،

او هذا وأشار إلى كتاب سنن أبي داود، وكان عن يمينه،
او السيف ، (1) .

إن قرعة السلاح تمنع من حسن الاستماع ولذلك ظل
الفقهاء على رأيهم ولو كانوا من المقربين الى الدولة كأبي
بكر هذا وصاحبنا ابن رشد، بل إننا نجد ابن رشد يقوم فعلا
بتوضيح ما اشكل على الخليفة في كتاب عظيم النفع هو كتابه
بداية المجتهد ونهاية المقتصد الذي ذكر فيه احوال فقهاء الامة
من الصحابة والتابعين ومجتهدي الائمة مع بيان مستند كل من
الكتاب والسنة والقياس واسباب الخلاف ووجوهه وعمله ومع
الترجيح واعتماد الصحيح من النصوص بحيث لم يدع لقائل ما يقول
في هذا الباب اعتراضا على هذا المذهب او ذاك واستشكالا لمدرک
حكم واستنباط فقه لم يرد فيه نص او اضطربت الرواية المتعلقة به .
وهكذا أثبت ابن رشد أنه لم يكن ضالعا مع الموحدين
في موقفهم من مذهب الامام مالك، وان شخصيته الفقهية كانت
فوق المساومة، وانه سواء اطلع على مناقشة الخليفة للفقيه ابن الجرد
او لم يطلع عليها، لم يهب ان يتصدى لرد ما كان الخلفاء
الموحدون ومن على رأيهم يوردونه على الفقهاء ويطعنون به في
المذهب، وشرح ما خفي عليهم من ذلك، والدفاع عن أئمة
الدين وعلماء الملة بعلم وتجرد تام .

وإذا كنا قد سجلنا عدم نجاح الحملة الموحدية على الفقه
المالكي، فإننا لا ننكر تأثير هذا الفقه وحملته على الرغم من
ثباتهم بروح الدعوة الموحدية القائلة بالرجوع الى الاصول واستنباط
الاحكام من الكتاب والسنة فإن الفقهاء في هذا المجال قد راجعوا

(1) المعجب للمراكشي ص 279 .

خطتهم وأخذوا بطريقة وسط بين الاعتماد على أقوال مقلديهم (بفتح اللام) فقط والاجتهاد المطلق، وصاروا يتلمسون مدارك الأحكام ومآخذ الأقوال التي تنسب لرجال المذهب من مصدريها العظميين الكتاب والسنة، ويوجهونها ويصححون مستندها إن لم يكن رداً على الخصوم فطلباً للاطمئنان حتى لا يتشوف احد الى ما وراء ذلك أو تعلق بذهنه شبهة من الشبهات .

وأزعم ان ابن رشد فضلاً عن تأثره كغيره من الفقهاء بهذه الروح، كان أيضاً متأثراً بثقافته المنطقية ومرآته على الجدل، في مقارنته للمذاهب وتخريجه للأقوال، ولعل ذلك هو ما منعه من أن يكون متعصباً لهذا المذهب أو ذاك، فإنه يناقش كل خلاف بروح رياضية نزيهة، وإذا رجح فقهاً على فقه فإنه لا يبدي أي تنطع فني ذلك كما هي عادة فقهاء المذاهب، والغالب ان يرى الخلافات المذهبية ناشئة من يسر الشريعة ومرونة قواعدها، فيجملك تشعر بالاطمئنان لكل المذاهب وتلاشي الخلاف فيما بينها تلاشي الضباب بفعل أشعة الشمس .

ولا يعنى هذا تنازله عن مالكيته وعدم قيامه بفقه المذهب كما يطلب من أحد اقطابه، كلا فإنه اول ما يذكر مذهب إمامه ويزيد بذكر أقوال أعلامه المشهورين التي خالفوا فيها الإمام ومداركها ولا يقول في مسألة من المسائل أنه لا يعرف حكمها في المذهب كما يقول ذلك احياناً فيما يتعلق ببعض المذاهب الأخرى، مما يدل على تمكنه من معرفة مذهبه وتضلعه في فقهه . وهو يأخذ على المذهب مخالفته للأصول في بعض المسائل وربما يعلل ذلك بعدم بلوغ النص إلى الإمام أو عدم صحته عنده . وكثيراً ما يلاحظ مخالفة المذهب للقواعد التي بني عليها واتخذها

أساسا للحكم وله في العمل الذي هو اصل من اصول مذهب الامام مالك اعني عمل اهل المدينة كلام ضمنه كتابه في اصول (1) الفقه، ولعله هو الذي لخصه في كتاب بداية المجتهد عند الكلام على جمع الصلاة ورأيه فيه وسط، يقبل ويرد بحسب المقامات (2) .

فنرى من هذا انه لم يتخل عن مذهب الامام مالك، وأنه كان يأخذ بفقهه ويلتزم باجتهاده مع ما كان عليه من تساهل وسعة أفق، واكثر من ذلك أنه لم يحاول ان يجعل له رأيا مخالفا لفقهاء المذهب، ويوجد مدرسة جديدة فيه كما فعل جده، أدركنا ذلك بالتتبع لكلامه، ورأيناه يصرح به في كتابه بداية المجتهد، اثناء استعراضه للخلاف في نجاسة الارواث حين يقول :

« ولولا أنه لا يجوز إحداث قول لم يتقدم إليه احد في المشهور، وإن كانت مسألة فيها خلاف، لقلل أن ما ينتن منها ويستقدر بخلاف ما لا ينتن ولا يستقدر، وبخاصة ما كان منها رائحته حسنة لاتفاقهم على إباحة العنبر، وهو عند اكثر الناس فضلة من فضلات حيوان البحر، وكذلك المسك، وهو فضلة دم الحيوان الذي يوجد المسك فيه فيما يذكره ، (3) .

وهذه ملاحظة صائبة منه وهي حرية ان تكون قولاً راجحاً في المسألة لولا أنه كما رأينا يتخرج من إحداث قول لم يسبق إليه .

وبالطبع انتقد ابن رشد المذاهب الاخرى في عدة مسائل والزم اصحابها بمخالفتهم للقواعد التي اعتمدها كلما وقعت منهم هذه المخالفة، وهو يعتني بذكر مذهب الظاهرية ولا يذكر إمامه

(1) ذكره في بداية المجتهد ج 1 ص 102 .

(2) البداية ج 1 ص 174 .

(3) البداية ج 1 ص 81 .

داود إلا قليلاً، بل يقتصر على ذكر ابن حزم، لا أدري ذلك للاعتزاز بأندلسيته أم للاعتداد بقول العلماء لولا ابن حزم لما ذكر داود . والجمهور عنده إنما يعني الأئمة الثلاثة مالكا والشافعي وأبا حنيفة (1) أما الحديث الثابت فهو ما أخرجه البخاري ومسلم (2) أو أحدهما . ومن الطريف أنه يعتمد كثيراً في الحديث على صحيح مسلم وهي طريقة المغاربة الذين يفضلون مسلماً على البخاري من ناحية الرواية كما هو معروف .

وعلى ذكر الحديث فإن تصرفه فيه يدل على الخبرة والمهارة بخلاف ما قالوا عنه من أن الدراية أغلب عليه من الرواية هما سبق، فنجدته يدقق في روايات حديث السجود على الجبهة والآنف حتى يذكر أفراد أحدها بذكر الجبهة فقط مؤيداً بذلك مذهب مالك، ومستدركاً على الحافظ أبي عمر بن عبد البر الذي اقتصر على روايات الجبهة والآنف معاً (3) . وكذلك نجده يرد على ابن عبد البر في تضعيفه لأحد الأحاديث بأنه وارد في صحيح مسلم (4)، وهذا مع العلم بأن كتاب الاستذكار لابن عبد البر هو مصدره الأول في تحقيق المذاهب ونسبتها إلى أربابها (5) . وقد يبحث في الحديث الثابت من جهة المعنى اعتباراً بالحديث الضعيف (6) وذلك صيرورة منه إلى نقد المتن بعد صحة السند .

(1) البداية ج 1 ص 59 .

(2) الهداية ج 1 ص 47 و 61 .

(3) البداية ج 1 ص 139 .

(4) البداية ج 1 ص 212 .

(5) البداية ج 1 ص 88 .

(6) البداية ج 1 ص 131 .

والامثلة على مشاركته في علم الحديث واخذه به، غير هذه كثيرة فلا نطيل بها .

ويستفح ابن رشد بمعلوماته الطبية والطبيعية والفلكية في الترجيح والاختيار للاقوال والمذاهب وبناء الفقه على النظر العلمي الصحيح وذلك كما في تعقيبه على اختلاف الفقهاء في استمرار العادة الشهرية مع الحمل عند النساء حيث قال : « وسبب اختلافهم في ذلك عسر الوقوف على ذلك بالتجربة واختلاط الامرين، فإنه مرة يكون الدم الذي تراه الحامل دم حيض، وذلك إذا كانت قوة المرأة وافرة والجنين صغيراً، وبذلك امكن ان يكون حمل على حمل على ما حكاه بقراط وجالينوس وسائر الاطباء إلى آخره (1)، وكتعليقه لاختلافهم في نجاسة الممته وشعرها بأن مرجعه إلى فقد الحس والنمو، فمن قال ببقائهما فيهما لم يحكم بالنجاسة (2)، وكرده على قول الخليل بن احمد في الشفق بأنه لا يثبت بالقياس والتجربة (3)، وكقوله في مسألة تعجيل دفن الميت أن ذلك في غير المرضى بأمراض مخصوصة حتى لقد قال الاطباء إن المسكوتين لا ينبغي ان يدفنوا إلا بعد ثلاث » (4)، وهكذا أفادنا الحكم، وكلمة المسكوتين أي الموتى بالسكتة القلبية. ومسائله من هذا الباب كثيرة، ونقدم منها قوله في نجاسة الارواث، ومن الجدير بالذكر أنه يرى العمل بالحساب لاثبات إهلال الشهر، ويقول إن سبب اختلاف العلماء في ذلك هو ترك

(1) البداية ج ل ص 53 .

(2) البداية ج ل ص 78 .

(3) البداية ج ل ص 96 .

(4) البداية ج ل ص 284 .

اعتبار التجربة فيما سبيله التجربة والرجوع إلى الاخبار في ذلك، وأورد حديث صوموا لرؤية الهلال وافطروا لرؤيته فإن غم عليكم فاقدروا له، وقال إن الجمهور أول قوله فاقدروا له بما ورد في رواية أخرى أكملوا العدة ثلاثين، وغيرهم يقول إن معنى التقدير له هو عده بالحساب (1).

واحسب أن هذه النظرة القصيرة قد اعطينا من سمات فقه الرجل ما جعلنا على علم بعلو مكانته بين الفقهاء وأنه صاحب نظر واستدلال إلى كونه صاحب نقد ورواية، وأنه ينحو منحى التيسير والتسهيل اخذاً بمبدأ الشريعة السمحة في نفي الحرج وترك التشديد وأنه إن لم يكن صاحب مدرسة في الفقه، فإنما ذلك لتحرجه من أن يزيد في طين الخلاف بلة، وإلا فهو قادر على أن يجتهد كاجتهاد جده في دائرة المذهب، واجتهاد غيره من الفقهاء الكبار، وتركه لذلك مما يدل على قوة تدينه وشدة تمسكه باتباع السلف والقذوة الحسنة.

وذلك كله مع سعة الصدر وعدم التنطع كما نبهنا عليه سابقاً. ويعجبني كلامه في مناقشة مذهب من يقول بكفر نارك الصلاة اعتماداً على ظاهر الأحاديث الواردة في ذلك، فهو يخرجها على أن المراد من يتركها متعمداً مستحلاً لذلك، ومع ذلك فهو لا يرى قتله كفراً ولا حداً، لأنه لا يحل دمه إلا بإحدى الثلاث المنصوص عليها في الشرع، وهذه ليست منها. وأما مجرد التارك فلا يكون صاحبه كافراً إلا على مذهب من يكفر بالذنوب يعني المعتزلة، وهو قول لا يأخذ به أهل السنة. وهذه خلاصة كلامه، ولولا طوله لنقلتها فليُنظر في محله (2).

(1) البداية ج 1 ص 91.

(2) البداية ج 1 ص 226.

مع هذه اللوحة عن فقه ابن رشد وثقافته القانونية، ينبغي ان تذكر فلسفته الالهية وموقفه من الشريعة بعمامة، فإن لهما علاقة متينة بالايمان والفكرة الدينية في الاسلام، وكتاباه في هذا الغرض وهما : فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، والكشف عن مناهج الادلة في عقائد الملة، اشهر من ان يعرف بهما، وعليهما وعلى كتابه « تهافت التهافت » قامت شهرته كفيلسوف إسلامي عظيم، وفق لأول مرة وبنجاح كبير بين أغراض الفلسفة والدين، ورد على القائلين بتناقضهما واثبت فكراً وعملاً بسيرته التي لا يتطرق إليها الشك أن الفيلسوف يمكن ان يكون مؤمناً صادقاً متمسكاً بقواعد دينه لحد ان يصير قدوة فيه .

وهذا المقصد الذي انعم درسا وقتل بحثا ليس من نوع كلمتنا هذه . ولكنه ينطوي على موقف نعتبره من تمة الكلام على فقه ابن رشد وإمامته الدينية وهو معارضته لدعوة الموحدين في اتجاهها العقدي كمعارضته لها في اتجاهها الفقهي، ونعجب ان نشير له باختصار توفية لحق الموضوع .

والحقيقة أنه ليس معارضة بمعنى الكلمة، ولكنه يؤول إليها، فإن التصدي للرد على الغزالي ونقد كتابه التهافت مع ما كان له من مقام عظيم في نفوس الموحدين واعتباره الآذن لزعيمهم المهدي بن تومرت بالقيام على المرابطين مع ما يدعي له من القراءة عليه والاختذ منه، لا يمكن ان يعد إلا استمرار للحرب التي شنها الفقهاء على الغزالي وكتبه في الدولة السابقة، وليس ذلك مما يرضي عنه الموحدين والمتعصبون للغزالي على العموم . هذا من جهة، ومن جهة اخرى فإن نقد ابن رشد للاشاعة

في قضية التشابه ودليل الوجود وغيرهما ومذهبهم هو مذهب
الموحدين في العقيدة على ما قدمناه، دعوا إليه وألزموا الناس
به وحاربوا المرابطين عليه هو أيضا من المجازفة في الخلاف
على الدولة ويعتبر شجاعة أدبية يقل لها النظير في عصره .

ولعل ذلك مما وطد سمعته العلمية، ورفع مقامه الديني عند
الناس، وإن كان من الوجهة السياسية لا بد أن يخلف أثرا في
نفوس الدولة، ويحسب له في المخالفات التي أخذت عليه عند امتحانه.

المهم أن الرجل كان بوجه ولا بوجه، وكان إماما في
الفقه كما كان إماما في الفلسفة، وإذا قلنا إماما في الفقه فإن
ذلك يعني إماما في الدين، لأن الفقه في الإسلام من الدين،
وكانت له عيرة على الحكمة والشرعة معاً هي التي جعلته طول
حياته يقف موقف الدفاع عنهما وذلك هو سر عظيمته رحمه الله .

العمل

هذه القاعدة المحكمة في مذهب الامام مالك

عرف مذهب الامام مالك بالوسطية بين الحرفيين المتمسكين بظاهر النصوص، وأصحاب الرأي الذين لم يكن للنقل ولا للنص عندهم أهمية كبيرة. وهذا المنحى في التفقه والاجتهاد يدل على حصافة فكر وبعد نظر، عرفهما المتقدمون للامام مالك وأقروا له بهما، ويعرفهما المتأخرون له ويقرون له بهما، حتى اننا لنجد أتباع المذاهب الاخرى في فجر النهضة ومطلع هذا القرن، عند تدوين الفقه ووضع سجلات الاحكام يفرعون الى الاخذ بمذهبه في عدة مسائل يعتبر فيها المخرج من الضيق والحل للمشكل، بحكم ما فرضه التطور من أفضية وأوضاع، بل افنا لنجد رجال القانون والمشرعين حتى من غير المسلمين ينوّهون بأصالة المدرك الاجتهادي في الفقه المالكي ويعتمدونه في كثير من الاحكام .

وهناك كلمة اشتهرت بين فقهاءنا وكثيراً ما يرددونها في سياق الحديث عن سماحة هذا المذهب ويسره، وهي قولهم :
« مذهب مالك أوسع من مصر والشام والعراق، الا في النكاح »

والعتق والطلاق . . . وإذا كان لنا ان نفسر هذه الكلمة حسب ما تدل عليه من مقارنة بين المذاهب، فافاننا ذرى أنها تسمى - فيما يبدو - الى مذهب الامام الاوزاعي (الشام) ومذهب الامام الشافعي (مصر) ولمذهب أبي حنيفة (العراق) . ثم هي فيما استثنته من الابواب الثلاثة، لا تعنى ضيق المذهب المالكي بقدر ما تعنى أخذه بالاحتياط في هذه الابواب وتحريره للسداد فيما يتعلق بقضايا الزوجية وحرية الرقيق فهو على كل حال وفي هذه الابواب أيضا، أوفق المذاهب وأكثرها اعتبارا لمصلحة الجماعات والافراد .

ولا نشك في أنه مدين بذلك لمرونة قواعده، وعدم تقيده الا بما يحقق مقصد الشريعة الغراء من درء المفاسد وجلب المصالح، فهو اذا اشتبه الامر بحكم العقل في النقل ليصل الى مراد الشارع، وربما خالف النقل اذا كان هناك ما يعارضه من واقع لا يصح تجاهله، والنقل غير متواتر. ومن هنا جاءت قاعدة العمل المحكمة في المذهب على نطاق الاجتهاد المطلق والاجتهاد المذهبي كما سنرى فيما بعد، وعلى ما نقل عن أبي محمد صالح عالم فاس الشهير، فان هذه القاعدة تأتي بعد القياس مباشرة في ترتيب الأدلة التي بني عليها الامام مالك مذهبه، ولكن ذلك فيما اذا لم تكن السنة من خبر الآحاد، والعمل على خلافها فانه حينئذ يقدمه على دليل السنة، ويأتي بعد دليل الكتاب في الترتيب، أي أنه يقارضها ويحل محلها. والمقصود بالعمل هنا عمل أهل المدينة كما لا يخفى.

ولا لقاء الاضواء على هذه القاعدة، والتعريف بعمل أهل المدينة، فنقل ما كتبه شيخ الاسلام ابن تيمية في صحة أصول مذهب أهل المدينة، فانه أشبع المسألة بحثا وتحقيقا، وهو مع ذلك غير متهم بالتحيز او التعصب للمذهب لانه ليس من أتباعه .

قال رحمه الله :

«مذهب أهل المدينة النبوية، دار السنة، ودار الهجرة، ودار النصر، إذ فيها سن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم سنن الاسلام وشرائعه. واليهما هاجر المهاجرون الى الله ورسوله، وبها كان الانصار (الذين قبواوا الدار والايمان من قبلهم) . . . مذهبهم في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أصبح مذاهب أهل المدائن الاسلامية شرقاً وغرباً، في الاصول والفروع .

وهذه الاعصار الثلاثة هي أعصار القرون الثلاثة المفضلة التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح من وجوه : « خير القرون القرن الذي بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم » .

وبعد ان تبسط في الكلام على هذا الحديث من حيث الرواية والدراية قال :

«وفي القرون التي أثنى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مذهب أهل المدينة أصبح مذاهب أهل المدائن، فانهم كانوا يتأسون بأثر رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من سائر الامصار، وكان غيرهم من أهل الامصار دونهم في العلم بالسنة النبوية واتباعها، حتى انهم لا يفتقرون الى نوع من سياسة الملوك، وان افتقار العلماء ومقاصد العباد أكثر من افتقار أهل المدينة، حيث كانوا اغنى من غيرهم عن ذلك كله بما كان عندهم من الآثار النبوية التي يفتقر الى العلم بها واتباعها كل احد .

ولهذا لم يذهب احد من علماء المسلمين الى ان اجماع أهل مدينة من المدائن حجة يجب اتباعها، غير المدينة، لا في تلك الاعصار ولا فيما بعدها، لا إجماع أهل مكة ولا الشام ولا العراق،

ولا غير ذلك من امصار المسلمين، واما المدينة فقد تكلم الناس في اجماع اهلها، واشتهر عن مالك واصحابه ان اجماع اهلها حجة، وان كان بقية الائمة ينازعونهم في ذلك. والكلام انما هو في اجماعهم في تلك الامصار المفضلة واما بعد ذلك فقد اتفق الناس على ان اجماع اهلها ليس بحجة إذ كان في غيرها من العلماء ما لم يكن فيها .
وبعد كلام طويل عاد الى أصل المسألة فقال :

والتحقيق في مسألة اجماع أهل المدينة أن منه ما هو متفق عليه بين المسلمين، ومنه ما هو قول جمهور أئمة المسلمين، ومنه ما لا يقول به الا بعضهم، وذلك أن اجماع أهل المدينة على أربع مراتب:

الاولى:

ما يجري مجرى النقل عن النبي صلى الله وسلم، مثل نقلهم لمقدار الصاع والمد وكترك صدقة الخضر اوات، والاحباس، فهذا ما هو حجة بانفاق العلماء . أما الشافعي وأحمد وأصحابهما فهذا حجة عندهم بلا نزاع، كما هو حجة عند مالك وذلك مذهب أبي حنيفة واصحابه. قال ابو يوسف - وهو اجل اصحاب ابي حنيفة، واول من لقب قاضي القضاة - لما اجتمع بمالك وسأله عن هذه المسائل واجابه مالك بنقل اهل المدينة المتواتر، فرجع ابو يوسف الى قوله، وقال: لو رأى صاحبي مثل ما رأيت لرجع مثل ما رجعت.

المرتبة الثانية:

العمل القديم بالمدينة قبل مقتل عثمان بن عفان فهذا حجة في مذهب مالك وهو المنصوص عن الشافعي. قال في رواية يونس ابن عبيد الاملي: اذا رأيت قدماء أهل المدينة على شيء فلا تتوقف

في قلبك ريباً أنه الحق، وكذا ظاهر مذهب أحمد أن ما سنه الخلفاء الراشدون فهو حجة يجب اتباعها... والمحكي عن أبي حنيفة يقتضى أن قول الخلفاء الراشدين حجة، وما يعلم بأهل المدينة عمل قديم على عهد الخلفاء الراشدين مخالف لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم.

المرتبة الثالثة:

إذا تعارض في المسألة دليلان كحديثين وقياسين، جهل أيهما أرجح، وأحدهما يعمل به أهل المدينة، ففيه نزاع، فمذهب مالك والشافعي أنه يرجح بعمل أهل المدينة، ومذهب أبي حنيفة لا يرجح بعمل أهل المدينة. ولأصحاب أحمد وجهان أحدهما - وهو قول القاضي أبي يعلى وابن عقيل - أنه لا يرجح، والثاني وهو قول ابن الخطاب وغيره، أنه يرجح به قبل: هذا هو المنصوص عن أحمد. ومن كلامه قال إذا رأى أهل المدينة حديثاً وعملوا به فهو الغاية. وكان يفتي على مذهب أهل المدينة ويقدمه على مذهب أهل العراق... وكان يكره أن يرد على أهل المدينة كما يرد على أهل الرأي، ويقول انهم اتبعوا الآثار.

فهذه مذاهب جمهور الأئمة توافق مذهب مالك في الترجيح لأقوال أهل المدينة.

وأما المرتبة الرابعة:

فهي العمل المتأخر بالمدينة، فهذا هل هو حجة شرعية يجب اتباعه أم لا؟ فالذي عليه أئمة الناس أنه ليس بحجة شرعية. هذا مذهب الشافعي وأحمد وأبي حنيفة وغيرهم. وهو قول المحققين من أصحاب مالك، كما ذكر ذلك القاضي عبد الوهاب في كتابه

أصول الفقه، وغيره. ذكر ان هذا ليس اجماعاً ولا حجة عند المحققين من أصحاب مالك، وربما جعله حجة بعض أهل المغرب من أصحابه. قلت : ولم ار في كلام مالك ما يوجب جعل هذا حجة، وهو في الموطأ انما يذكر المجمع عليه عندهم، فهو يحكي مذهبهم، وقارة يقول الذي لم يزل عليه اهل العلم ببلدنا، يصير الى الاجماع القديم، وقارة لا يذكر شيئاً، ولو كان مالك يعتقد ان العمل المتأخر حجة يجب على جميع الامة اتباعها وان خالفت النصوص، لوجب عليه ان يلزم الناس بذلك حد الامكان، كما يجب عليه ان يلزمهم اتباع الحديث والسنة الثابتة التي لا تعارض فيها وبالاجماع وقد عرض عليه الرشيد او غيره ان يحمل الناس على موطأه فامتنع من ذلك وقال : ان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا في الامصار وانما جمعت علم أهل بلدي او كما قال .

• وإذا نبين ان اهل اجماع المدينة تفاوتت فيه مذاهب جمهور الائمة علم بذلك ان قولهم اصح اقوال اهل الامصار رواية ورأيا، وانه نارة يكون حجة قاطعة، وقارة يكون حجة قوية، ونارة مرجحاً للدليل، اذ ليست هذه الخاصية لشيء من امصار المسلمين (1) . انتهى كلام شيخ الاسلام باختصار كثير اعتباراً بما هو من صميم الموضوع لا غير. ومن غير العسير ان نستخرج منه الحقائق التالية :

1 - ان مذهب اهل المدينة على عهد الصحابة والتابعين وتابعيهم هو اصح مذاهب اهل الامصار الاسلامية في الاصول والفروع.

(1) رسالة صحة أصول مذهب أهل السنة لشيخ الاسلام 'ابن تيمية' . طبعة مصر . صفحات : 17 - 20 - 23 - 26 - 27 - 28 .

2 - انه لم يقل احد بحجية مذهب أهل مصر من الامصار، كما قال جمهور الائمة بحجية مذهب أهل المدينة وان اختلفوا في بعضه.
3 - ان مذهب أهل المدينة على أربع مراتب، حجة باتفاق، وحجة قوية، وحجة مرجحة للدليل، والرابعة حجة عند بعض أهل المغرب من اصحابه .

ونبادر فنسجل ما يتضمنه هذا الكلام من ان الاخذ بعمل أهل المدينة ليس خاصا بالامام مالك، بل ان غيره من الائمة قد اخذ به ايضا او بما ثبت عنده منه على الاقل. ثم نلفت النظر الى ان ما قاله شيخ الاسلام ابن تيمية في مذهب أهل المدينة على عهد الصحابة والتابعين وتابعيهم من انه اصح مذاهب أهل الامصار باطلاق، يستلزم ان مذهب مالك اصح المذاهب، ودعني ما قال به هو لا اصحابه الذين اتوا من بعده، وذلك لانه رحمه الله كان من هذا الجيل، جيل تابع التابعين باتفاق، وان قيل بأنه من التابعين، ولكنه لا يصح. وعلى كل حال فما اخذ به من عمل أهل المدينة انما كان من مذهب الجيل الذي حكم شيخ الاسلام بأنه اصح مذاهب أهل الامصار. وبعد هذا فلاحظ على شيخ الاسلام انه يعبر كثيراً باجماع أهل المدينة، والقصود هو مذهبهم وعملهم . . . ولعله تأثر بأقوال أهل المذاهب المعارضة لمالك في اخذه بعمل أهل المدينة، فان كثيراً منهم زعموا ان مالكا يعتبره اجماعا، بل ان بعضهم نسب اليه انه يرى اتفاق الفقهاء السبعة بالمدينة اجماعا، وهذا تقول باطل وزعم غير صحيح، فان الاجماع عنده كالاجماع عند غيره، وهو دليل مستقل يأتي بعد دليل الكتاب والسنة، فيجب التنبيه لذلك وحمل كلام الشيخ ابن تيمية كلما عبر باجماع أهل المدينة على مذهبهم وعملهم لا اقل ولا أكثر .

هذا والذي تقرر عند المالكية ان عمل اهل المدينة اما ان يكون امرا لا يخالفهم فيه احد، فهذا حجة عند الجميع وهو المرتبة الاولى في كلام ابن تيمية، ويتعين ان يحمل على ما ثبت من طريق النقل، وهو الذي رجع اليه أبو يوسف لما ناظره مالك وقال لو رأى هذا صاحبي (يعني ابا حنيفة) لرجع اليه. واما ان يكون مما اجمعوا عليه ولكن يوجد من يخالفهم فيه، فهذا حجة عندهم يقدم على خبر الواحد لانه اقوى منه بحكم انه كالتواتر، وقد قال ربيعة : رواية الف خير من رواية واحد، وقد نقل مالك في موطئه اجماع اهل المدينة على نيف واربعين مسألة (1). واما ان يكون اجتهادا منهم واستدلالا، فهذا اختلفت فيه كلمة فقهاءهم ومعظمهم على انه ليس بحجة، وينبغي ان يحمل عليه كلام ابن تيمية في المرتبة الرابعة .

ونلمح هنا الى رأي لنا في تقديم مالك لعمل اهل المدينة على الخبر الصحيح الذي يروي عن طريق الآحاد، فاننا نرى انه ذهاب منه الى وجوب النظر في متن الحديث كما ننظر في السند، وان متن الحديث إذا وجد ما يعارضه من اصول وحقائق ثابتة مسلمة، وكان من رواية الآحاد، اي مما لم يتواتر ويعلم بالضرورة انه من الدين وعمل السلف فانه يمكن ان يوضع موضع البحث ويتوقف العمل به الى ان يثبت فيه من طرف اهل العلم، لا سيما مع اجماع علماء الحديث على ان الحكم بالصحة او الضعف على حديث ما، انما هو بحسب غلبة الظن وما تعطيه القواعد، والا فقد يكون الصحيح هو الضعيف والعكس بالعكس، ومما يستأنس به لهذا

(1) الفكر السامي ج 2 . طبع تونس . ص 168 .

الرأي ما روى عن ابن المعذل أنه قال : سمعت انسانا سأل ابن الماجشون : لم رويتم الحديث ثم تركتموه ؟ ، فقال : ليعلم اننا على علم تركناه ولا يخفى ان كثيرا من الباحثين المعاصرين مستشرقين وغيرهم، قد لاحظوا على علماء الحديث انهم لم يتناولوا متون الاحاديث بالنقد والتصحيح كما تناولوا اسانيدها، فاذا كان ما رأيناه في قاعدة العمل هذه وتقديم مالك لها على الخبر الصحيح من رواية الآحاد بموجبه، صحيحا، فانه يكون محاولة اولى وسابقة هامة في هذا الباب يمكن الرجوع اليها والاعتماد عليها .

ونكتفي بهذا القدر في الكلام على عمل اهل المدينة الذي كان حجة وقاعدة محكمة عند الامام مالك، من جملة الحجج والقواعد التي بني عليها مذهبه واجتهاده، وهو اجتهاد مطلق كما لا نحتاج ان نقول، منتقلين الى الكلام على عمل غيرهم من اهل الامصار التي تأثر اهلها من اتباع مذهب مالك بنظرية هذه، فاجعلوا من العمل عندهم اصلا من اصول الفقه وقاعدة يرجع اليها عند الاجتهاد، ولكن على صعيد المذهب، وهذه الامصار هي افريقيا والمغرب والاندلس. فهو غير معروف في المشرق او غير معمول به عند فقهاء المالكية من اهل .

واصله ان يحكم احد القضاة او يفتي احد المفتين ممن ثبتت عدالته ونزاهته مع العلم والمعرفة، بقول من أقوال علماء المذهب وان كان ضعيفا أو مهجورا، لان هذا المفتي او ذلك القاضي ما اختار هذا القول إلا لاعتبار خاص كاعتبار ظروف القضية وأحوال المتداعين والمستفتين وما يرجع الى عوائدهم وأعرافهم، فوجد ان ذلك القول اكثر انطباقا وأشد ملائمة للمسألة مما عدها وان كان غير قوي ولا مشهور وحجة الفقهاء في هذا الباب قول عمر بن عبد العزيز: تحدث

للناس أفضية بقدر ما احدثوا من الفجور، مع ما انصاف الى ذلك من فائدة رفع الخلاف في المسألة التي جرى بها العمل والتي يكون فيها قولان أو أقوال متعددة في المذهب، اذ أن حكم الحاكم يرفع الخلاف على ما هو معروف .

ولكن لابد للعمل من ان تتوفر فيه شروط جمعها العلامة سيدي محمد ثنون بقوله :

والشرط في عملنا بالعمل ثبوته عن قدوة مؤهل
معرفة الزمان والمكان وجود موجب الى الاوان

فالشرط الاول ان يعرف من حكم أو أفتى به هل هو من أهل العلم وقضاة العدل ام لا ؟ والشرط ان يعرف الزمان والمكان اللذان عمل به فيهما، ولذلك يقال هذا من عمل أهل قرطبة مثال أو عمل أفريقية أي القيروان ونحوها .

والشرط الثالث : ان يتكرر موجبه، فاذا اذنتى فلا عمل عليه، لان الحكم يدور مع العلة وجودا وعدما .

وعلى كل حال فهو فسحة من فسح الشريعة الاسلامية التي تدل على مزيد استعدادها للتطور وصلاحياتها لكل زمان ومكان وقابليتها للتجديد والاجتهاد، ولكن مع مراعاة الشروط المذكورة، فاذا شذ عنها فاصطبغ بصبغة الغرض والشهوة، فان العلماء يردونه ولا يقبلونه وبكونون جميعا إلبا عليه .

ثم هذا العمل قسمان : عمل عام وهو الذي لا يتقيد ببلد دون آخر، وانما نواطاً عليه فقهاء الامصار في افريقية والمغرب والاندلس، ويعرف من كتبهم وفتاويهم، وهذا قد اعتنى بجمعه ونظمه العلامة ابو عبد الله محمد ابى القاسم الفيلاي، ثم شرح ذلك النظم

بشرح مقيد . وهو مشهور مطبوع طبع حجر بفاس، ويعرف بين الطلبة بالعمل المطلق .

وعمل خاص مقيد بإقليم معين أو مدينة معروفة كعمل اهل فاس، وهو الذي ذكره العلامة أبو الحسن علي بن قاسم الزقاق في لاميته بقوله :

وفي البلدة الغراء فاس، وربنا يقى أهلها من كل بأس تفضلا
جرى عمل باللائى تأتى كما جرى بأندلس البعض منها فأصلا
لما قد فشا من قبح حال وحيلة فيخسا الذي للغى يبغى توصلا

فأشار الى ان العلة في الحكم بالعمل هو نفادي احتيال المتداعين وما يتخذونه من وسائل للوصول الى أغراضهم وان كانت باطلة . وذلك كما في عدة المطلقة التي هي ثلاثة قروء فجرى العمل بجعلها ثلاثة اشهر، لان كثيراً من المطلقات يستعجلن الزواج فيدعين انقضاء القروء الثلاثة، فعوملن بنقيض قصدهن ولم يحكم لهن بانقضاء العدة الا بعد مرور ثلاثة أشهر على طلاقهن إذ كان الغالب على أكثر النساء ان يحضن مرة في الشهر، فجمع بين اصل العدة والاحتياط لمراد الشرع في هذا العمل . والزقاق وان كل أول من جمع مسائل عمل أهل فاس، الا انه لم يذكر منها الا ثمان عشرة مسألة، وقد تصدى بعده لجمعها العلامة سيدي عبد الرحمن الفاسي ونظمها في رجز يعرف بالعمل الفاسي، وانها الى نحو ثلاثمائة مسألة، وأشار الى ما ذكره الزقاق منها بقوله :

وهد في اللامية الزقاق منها ثمان عشرة نساق
وقد شرح نظمه هذا بشرح هام، كما شرحه العلامة أبو القاسم

العميري، والعلامة سيدي المهدي الوزاني، والدنا سيدي عبد الصمد رحمهم الله جميعا، وشرحا الوزاني والوالد مطبوعان، الاول بفاس والثاني بمصر .

وللعلماء على بعض مسائل العمل اعتراض لضعف مستندها، فقد كتب في ذلك العلامة ابو العباس احمد بن عبد العزيز الهلالي في شرحه على المختصر الخليلي فذكرة جامعة بحسن الاطلاع عليها، ولكن ذلك لم يمنع ان يستمر العمل والحكم بهذه المسائل حتى صار من التقاليد المعروفة ان يظهر السلطان في المغرب اي المنشور الذي يتولى القاضى بموجبه ويسند اليه الفصل بين الخصوم، ينص على وجوب الحكم بما هو المشهور في مذهب مالك او ما جرى به العمل. ومدونة الاحوال الشخصية التي صدرت في العهد الجديد تأخذ بهذه المسائل ولا تخالفها الا في القليل منها.

وخلاصة القول ان العمل في مذهب الامام مالك قاعدة اصيلة محكمة في كثير من الاحوال والنوازل، وعلما المذاهب الاخرى ان كانوا لم يعرفوا منها الا عمل اهل المدينة، فان علماء المالكية قد طردوا قاعدة العمل، وخصوصا في بلاد المغرب، فطبقوها كما رأينا في الكثير من مسائل القضاء والفتوى، حتى صارت عندهم تكون جانبا من فقه المعاملات خصصوه بالتأليف. ولقد كنت مرة آنذاك مع البروفسور ميو وكان قد رجع من مؤتمر القانون الدولي الذي عقد بلاهاي، فقال لي: أئدري اننا قررنا في المؤتمر اعتبار الفقه الاسلامي مصدرا اوليا من مصادر القانون الدولي؟ وقال لي أيضا: ان الفقه المالكي، ولاسيما في المغرب، قد بلغ الى الدورة من الاصابة والشمول.

وافكم في المغرب بمسائل العمل قد برهنتم على تفتحكم

وحللتكم مشاكل عويصة كما في مسألة بيع الصفقة التي نعاني منها في أوروبا ما نعاني، فكم من قصور شاهدة أصبحت عرضة للتلف، أو يستبد بها احد الشركاء ولا يمكن للباقي من ملاكها ان يفعلوا شيئاً . . . ولا بد أننا سنأخذ بمسألة بيع الصفقة في يوم ما، فهذه نظرة رجل من رجال القانون الاجانب الى مسألة العمل تدل على قيمتها التشريعية العظيمة والحق ما شهدت به . . .

وقبل ختم هذه الكلمة أحب أن أشير الى ما سبق لي ذكره قبل سطور، وهو أن علمائنا طبقوا قاعدة العمل في مسائل القضاء والفتوى، وصارت عندهم تكون جانبا من فقه المعاملات وأنا أؤكد هذا الكلام واقصد انهم لم يتجاوزوا بها هذه الدائرة الى دائرة فقه العبادات كما في قاعدة عمل اهل المدينة عند الامام مالك، فهو فرق لا بد ان يلاحظ بين العمليين .

وبالله التوفيق

دور علماء المغرب في الدعوة الى الله قديمًا وحديثًا

يقول الله تبارك وتعالى (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : يقول تعالى ولتكن منكم أمة منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة الى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، قال الضحاك هم خاصة الصحابة وخاصة الرواة يعنى المجاهدين والعلماء . وقال أبو جعفر الباقر : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ثم قال : « الخير اتباع القرآن وسنتي » رواه ابن مردويه . والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الامة متصدية لهذا الشأن وإن كان ذلك واجبا على كل فرد فرد من الامة بحسبه ، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان ، وفي رواية « وأيس وراء ذلك من الايمان حبة خردل » انتهى كلام ابن كثير .

من هذه الآية الكريمة كان منطلق الدعوة الى الله في الاسلام، منذ فجر الاسلام، إنها أوجبت الدعوة على الامة، على المؤهلين منها العارفين بما تكون الدعوة إليه وهو الكتاب والسنة، فلم يسعهم إلا القيام بهذا الواجب لانه في حقهم بمثابة الصلاة والصيام وغيرهما من الفروض، وإن فرطوا فيه كانوا آثمين هم وسائر الامة على قاعدة الفرض الكفائي، يأتئون هم لعدم قيامهم بهذا الواجب ويأثم سائر الامة لانهم يقعون في المخالفات بسبب عدم الامر والنهي، إلا من استنكر ذلك بقلبه واحتمى منه، وهو أضعف الايمان .

وما أحسن ما فسر به ابن كثير مقاصد الآية، فالمراد هو قيام جماعة مخصصة بهذا الواجب لا كل الناس، وإلا صار الامر فوضى. وربما انقلب الحال فوق الامر بالمنكر والذهي عن المعروف كما نشاهد ذلك في كثير من الاحوال .

ثم الدعوة لا تكون لكل ما ينطق به الناعقون، ويتبعج به المتبعجون، ولو سموه بأسماء مغربة ونسبوه الى من يزعمونهم قادة الفكر في العالم، فالعالم لم يزل في الضلال وإنما أنقذته دعوات الانبياء والمرسلين، ولذلك بين المفسر ما تكون الدعوة إليه بهديث ابن مردويه، وهو الكتاب والسنة، وبين كذلك الدعوة بقول الضحاك : هم خاصة الصحابة، يعني في العهد الاول، وخاصة الرواة بعلي فيما بعده من العهود، وزاد المفسر فبين المراد بهم بقوله : بعلي المجاهدين والعلماء، وهي كلمة توزن بالذهب لانها وضعت الامر في نصابه، فالمجاهدون هم الذين يقاتلون لتكون كلمة الله هي العليا وهم أشرف الدعاة وأول من يدخل في عداد هذه الآية التي أمر الله عز وجل بقيامها ويدخل فيهم بالاولوية

المدافعون عن الأرض المغتصبة من أراضي المسلمين؛ والعلماء هم العارفون بالكتاب والسنة والمنكر والمعروف بحسب ما تنص عليه الآيات الكريمة والاحاديث الشريفة. لا كل من هب ودب وزعم أنه من العلماء فربما جعل البدعة سنة والسنة بدعة ! . . .

إلى هذه الآية المؤسسة المشرعة للدعوة، هناك آية أخرى مكيفة وموجهة لها، وهي قوله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام: (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتتي هي أحسن) قال القرطبي : هذه الآية نزلت بمكة في وقت الامر بمهادنة قريش، وأمره أن يدعو الى دين الله وشرعه بتلطف ولين دون مخاشنة وتعنيف، وهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمون الى يوم القيامة. فهي محكمة في جهة العصاة من الموحدين، ومنسوخة بالقتال في حق الكافرين وقد قيل : إن من أمكنت معه هذه الاحوال من الكفار ورجي ايمانه بها دون قتال فهي فيه محكمة، والله أعلم؛ وقال ابن كثير : يقول تعالى آمراً رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم أن يدعو الخلق الى الله بالحكمة، قال ابن جرير وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة والموعظة الحسنة أي بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس، ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى، وقوله وجادلهم بالتتي هي أحسن أي من احتاج منهم الى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب كقوله تعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتتي هي إحسن إلا الذين ظلموا منهم) الآية فأمره تعالى بلين الجانب كما أمر موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما الى فرعون في قوله : (فقولاه قولا لنا لعله يتذكر أو يخشى) .

هذا دستور الدعوة في الاسلام، مأخوذاً من القرآن الكريم،

وهو مما ينطبق عليه قوله تعالى : (واو كان من عند غير الله، لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) فكل من حاد عنه زل، وعدم التزام المسلمين به هو الذي يشيع بينهم الفرقة، فاهيك بفشل الدعوة وعدم ايمانها ثمراتها المطلوبة، واقد شهدنا أحد الدعاة الكبار الى التوحيد وكان عليه جلال ووقار، والمظهر كما لا يخفى له تأثير بليغ في النفوس، ومع ذلك رأينا الناس يتحامونه ويشيرون اليه بما يفر منه، لانه لم يكن يأخذ بهذا الادب القرآني، ويواجه الناس بما يكرهون، فيبدأ وينتهي بتفكيرهم، لا يقول هذا شرك بل يقول يا مشركون ويا أسفني على ما ضاع معه من علم ورواية بسبب تشدده وغلظته، وشهدنا داعية آخر كان ذا وجهة ونفوذ، والناس عادة لا يميلون الى من كان كذلك، ولكن القضية معه كانت معكوسة، فقد أقبل الناس عليه إقبالا شديداً، خاصتهم وعامتهم حتى العلماء وشيخ الجماعة إذ ذلك كانوا يحضرون مجلسه، وكان يدعو الى التوحيد والى السنة، ويقول كل ما كان يقوله سابقه : إلا أن الاسلوب يختلف مع مزيد علم هذا على ذلك، وعن هذا الشيخ ودعوته التي كانت على النهج القرآني المذكور، افترش توحيد الربوبية في المغرب، فكف كثير من الناس عن مظاهر الشرك التي كانوا منغمرين فيها ولا سيما في قصد الاضرحة والاماكن التي يقال إن لها تأثيراً أو على الأقل بركة تلمس، وانقطع الكثير منهم عن المشاركة في المواسم القبرية التي تقام هنا وهناك، وكانت المشاركة فيها من علامة التقوى والصلاح، بل ان بعضها ألغي ولم يبق به عمل، وعنه أيضاً افترشت سنة القبض في المغرب وكانت غير معمول بها إطلاقاً ومن أخذ بها من المشايخ عند زيارته للمشرق لم يفتد به أحد إلا خاصته ولم يسلم من الانتقاد

والرد عليه، وهكذا يظهر للجميع أن دستور الدعوة القرآني، كما كان عاملاً فعالاً في نشر الاسلام منذ البدء، ما يزال على فعاليته في نشر الدعوة وقبولها من لدن الكافة، ولا تبديل لكلمات الله .

ولم تكن السنة النبوية وهي التفسير الرسمي للكتاب العزيز، بمقتضى قوله عز وجل (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) أقول لم تكن السنة بمنأى عن أمر الدعوة، فقد جاء في الحديث الشريف ما ينسجم مع الآية الاولى في الحض على القيام بالدعوة قوله (ص) «لان يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس»، وفي معنى الآية الثانية من أدب الدعوة قوله عليه السلام «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا»، والآيات والاحاديث في هذا الباب كثيرة، وإنما اقتصرنا على بعضها لنخلص إلى المطلوب من وجوب الدعوة على العلماء وفق ما جاءت به النصوص، ومن ثم انطلق علماء المغرب كغيرهم من علماء سائر الاقطار الاسلامية إلى القيام بهذا الواجب، فلم يقصروا عن غاية ولا يزالون كذلك إن شاء الله تحقيقاً لخبر انعمصوم (ص) القائل: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله» .

ومن الانصاف ان نقول إن العلماء ما قاموا بواجبهم في التبليغ إلا وكانوا دعاة، فإن المحافظة على أحكام الشريعة الغراء لا تكون إلا بمعرفتها، وتعريف الناس بأحكام الدين وشعائره من عقيدة وعبادة ومعاملة، هو من باب التوعية والتبليغ عن صاحب الشرع عليه السلام الذي قال «بلغوا عني ولو آية»، ذلك أن هذا الدين الحنيف لم يات إلا بما يطابق الفطرة والعقل والمصلحة وما يوفق بهن مطالب الجسد والروح، فمنه عليه دليل لا سيما إن لقن

من مصادره الأولى الكتاب والسنة ونصوصهما التي تلج القلب من غير استئذان وتصل إلى أعماق النفوس فتملؤها نورا وهدى وإطمئنانا، ولقد كانت مجالس العلم تملأ ساحات المساجد في مدن المغرب وبواديها، والناس يتوافدون إليها فيتفقهون في دينهم وتتغذّب أخلاقهم وتحسن معاملاتهم وينشؤون أولادهم على ما مرضى الله ورسوله وكان يقال في إحدى الخواضر إن عامتها أذكر للمسائل من علماء غيرها، وذلك لكثرة مجالس العلم بها وشدة ملازمتهم لها، فهؤلاء العلماء كانوا دعاة مخلصين، وبفضلهم بقيت هذه الأثارة من العلم والإيمان في بعض العوام وإن كانت تنقلص يوما فيوما.

لكن الدعاة الذين نصبوا أنفسهم للدعوة، لا للتبليغ فقط، كان تأثيرهم أقوى ولنفعهم أبلغ وهم إنما يظهرون في الفينة بعد الفينة، حين يكون حال الناس يستدعي ظهورهم لما ينتشر بينهم من بدعة، أو يموت فيهم من سنة، وعندما يغلب الشر على الخير وتعم الفتنة بالدنيا وما يجر إليها، كما هو الحال الآن، هناك يكون قيام الدعاة أمرا لا معدى عنه لانقاذ الموقف وتصوير الناس بما فيه صلاح معاشهم ومعادهم وتجديد الدين بعبارة أجمع وأوضح كما جاء في الحديث الشريف «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها» على أن مفهوم العدد في الحديث هنا غير ملزم، أو هو متعلق بالمجدد الأكبر كما هو مبين في محله، وقد اختلفت الأقوال في المراد بتجديد الدين، وبعض المتأخرين في هذا العصر ظنوا أن كل ما طابق هواهم، واستخف الناس من باطل الحضارة الغربية هو مما ينبغي تبنيه وإدراجه تحت اسم التجديد، فهذا يريد تغيير أحكام الزواج والطلاق وهذه تريد

مراجعة أحكام النوازل، اعتباراً بما قرره بعض القوانين الأجنبية في هذا الصدد، ولربما يقوم بتغيير أحكام الصلاة فيجعلها مرة في الأسبوع أو أحكام الصيام فيحدده بيوم أو يومين في السنة ويبيح فيه تناول بعض المأكولات والمشروبات على غرار الصلاة والصيام عند أمم الحضارة المزعومة ولكن الأمر كما يقال في المثل : «قطعت جبهة قول كل خطيب» فالتجديد جاء بيانه في حديث شريف منطاب بين هم أهله من أهل العلم والدين قطعاً لكل تقول وسدا للطريق في وجه كل مدسوس واغل، والحديث المقصود هو قوله (ص) «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين».

والخلاصة أن الدعوة عسيرة في أهل العلم، فهم الدعاة وهم المجددون، لا يقبل من غيرهم قول، ولا يسمع لاحد سواهم فيها كلام، فهم الذين وكلت إليهم منذ طلبت من الأمة، وهم الذين شهد لهم النبي (ص) بالعدالة في هذا الحديث فلا يلحقهم بعده نجريح وهم طائفتان مبلغون وقائمون بالحق منذ ظهور الباطل، وكل على هدى من الله، وإذا كانت جماعة التبليغ هي الكثرة ولم تنقطع منذ دخول الاسلام الى المغرب، فإن الجماعة الثانية كانت قليلة دائماً لان مهمتها صعبة ولانها إنما توجد عند الاقتضاء، فحينما تكون الامور عادية لا يتطلب الحال من العلماء إلا النوعية والتبليغ تعليمياً وارشاداً عملاً بقوله تعالى (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) ولكن عند الانحراف عن الجادة وظهور البدع وعموم الضلالات، فإن الوضع يتطلب ما هو أكثر من التبليغ والتذكير، أعني التجديد والمرابطة والجهاد للقضاء على البدعة والزيف والاحاد اقتداء به (ص) ونهجاً على طريق السلف الصالح وأخذاً بقوله عز وجل لنبيه الكريم

(وجاهدكم به «أي بالقرآن، جهاداً كبيراً» وليست هذه إلا مهمة الدعاة.
وقد اختلفت مهمة الدعاة في المغرب باختلاف الاوضاع، فالمولى
ادريس رحمه الله عند قيامه واجه انتشار مذهب الخوارج الصفرية
فلزم يهداً له بال حتى قضى عليه في معارك طاحنة، وعبد الله بن
ياسين بعد إرسائه لقواعد الاسلام التي كانت متداعية في قبائل
المرابطين، انتدب لغزو برغواطة في بلاد تامسنا، وكانوا أصحاب
نحلة فاسدة، قد ادعى متبوعهم المسمى صالح بن طريف النبوة،
وتسمى بصالح المومنين، فجرت بينه وبينهم حروب عظيمة استشهد
في أثنائها : ولكن المرابطين لم ينثنوا عنهم حتى أبادوهم،
وطهروا البلاد من رجسهم .

والموحدون قاموا بإحياء السنة والعمل بالحديث بعد أن كان
الفقه الساج قد طغى على الدراسات الاسلامية وصارت كتبه هي
المرجع الاول والاخير، ففاضلوا بالجدال والقتال حتى ظهرت كتب
الحديث وتداولها الناس واعتمدوها في الفتوى والعمل ولقحت كتب
الفقه بعد ذلك بالادلة السنية، والاحاديث النبوية، عند العودة إليها
في العصر الذي تلا عصرهم، وكان ذلك من حسناتهم على أنهم
في غير هذا المنحى قد سجلت عليهم انحرافات وابتداعات مما
جاء به داعيتهم ومهديهم المهدي بن تومرت .

ومن أحسن ما يروى عنهم في هذا الصدد ما حكى عن الحافظ
ابي بكر بن الجدة انه لما دخل على يوسف بن عبد المومن اول دخلة
وجد بين يديه كتاب ابن يونس فقال له يا ابا بكر انا انظر في
هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله، رأيتم يا ابا بكر
المسألة فيها اربعة اقوال او خمسة اقوال او اكثر من هذا، فأني
هذه الاقوال هو الحق، وإياها يجب ان يأخذ به المقلد ؟ قال ابو
بكر : فافتتحت ابين له ما اشكل عليه من ذلك، فقال لي وقطع

كلامي . . يا ابا بكر ليس إلا هذا، وأشار إلى المصحف، أو
 هذا، وأشار إلى سنن أبي داود وكان من يمينه، أو السيف .
 وفي عهد المرينيين ظهر داعية من طراز آخر هو ابن
 الحاج الفاسي صاحب كتاب المدخل، ودعوته كانت ترمي إلى
 تصحيح أعمال الناس بعرضها على السنة وحملها على مقاصد
 الشرع نية وعبادة، ومنها أشياء استهان بها الناس وهي مما لا
 يستقيم أمره على أصل من أصول الدين، وكان يقصد الرجوع
 بالمجتمع الإسلامي إلى ما كان عليه أيام السلف الصالح والعهد
 الأول، وبما أن أكثر إقامته كان بمصر فإن دعوته لم تقتصر
 على المغرب بل شملت المشرق والمغرب معاً . وأثر كتابه في
 إصلاح الحياة الاجتماعية للمسلمين تأثيراً بليغاً، ثم ظهر بعده الشيخ
 أحمد زروق، وهو مصلح كبير شملت دعوته العلماء والصوفية،
 العلماء الذين مالوا مع الدنيا والولاء، وصار كل ما يحرصون
 عليه هو الحصول على المراتب والمخصصات، والصوفية الذين
 كثرت دعاويهم واشتغلوا بالمظاهر وجمعوا الناس عليهم إقامة
 الناموس الذي يحميهم هم ومن تعلق بهم من الاعتراض والانكار . .
 ولكنه لم يبال أن يقول كلمة الحق في الطائفتين معاً، وبغير
 المنكر ويحارب البدعة، ويزن أقوال القوم وأعمالهم بميزان
 السنة ويعرف بما فيها من غلو ومجانفة لأحكام الشرع ولا يدع
 إشكالا أو احتمالا من دون أن يتعرض له ويوضحه بما يزيل
 ما يلفه من غموض أو إيهام، ولو تعلق بمن تقررت منزلته
 وعرفت مكانته عند الخاصة والعامة من الشيوخ، ولذلك أطلق
 عليه محتسب العلماء والاولياء، اعتباراً بما كانت وظيفة العسبة
 تقوم به من حمل الناس على الجادة وتغيير المنكر في الأسواق

والحمامات والطرقاوت وغيرها، فتلك حسبة الدولة على ما يظهر في المجتمعات من تجاوز لحدود الشرع وآداب الاسلام، وهذه حسبة الدعوة على ما يرتكبه رجال العلم والدين من مخالفات لشرائعهم ومبتدعات في شعائره، وهي المقصود بقوله (ص) في الحديث الذي روته عنه عائشة (ض) من احدث في امرنا هذا ما ليس منه فهو رد . وفي القرن العاشر قام بشمال المغرب داعية فريد هو الشيخ عبد الله الهبطي، وصفه غير واحد من العلماء بالمجدد، وكان يدعو إلى التوحيد وفهم مدلول الشهادة والى في المعنى عدة تأليف، وكانت سيرته الذكر والذكرى وبذل النصيح لكافة الوري، وله أافية مشهورة باسمه عامرة الابيات بالاصح والارشاد وضم البدع الشائعة في الوقت وما عليه مقصوفة الزمان والطلبة من المنكرات والمحظورات .

وفي العصر العلوي رأينا العلامة المسناوي يقوم بالدعوة إلى سنة القبض في الصلاة وإحياء هذه الشعيرة بعد ما أميتت ويناضل عنها نضال أهل الاجتهاد وذلك في وسط كان لا يعرف إلا كراهيتها وينكر سنيها . وعرفنا السلطان المصلح سيدي محمد بن عبد الله يقوم بإصلاحات عظيمة في مناهج الدراسة العلمية بالقرويين، وفي القوانين العدلية، ومن أهم ذلك الدعوة إلى إحياء كتب السنة والاخذ بها ونصرة العقيدة السلفية وإقرار الصفات والمتشابهة على ما ورد من غير تأويل مع التنزيه . . . وجاء بعده ولده السلطان مولاي سليمان فشد الانكار على أهل البدع والطوائف الضالة، ونشر خطبته المشهورة في ذلك . وفي منتصف القرن الثالث عشر قام الشيخ محمد كنون بدعوة إصلاحية عظيمة تناولت عدة جوانب من الحياة والمجتمع، ففي الجانب

السياسي تصدى للثورة المتلاعبين بمصالح الأمة فأكثر النكير عليهم والتشهير بهم وألف الرسائل المتعددة في التنديد بأعمالهم ولفت نظر السلطان إلى تصرفاتهم . وفي الناحية الاجتماعية كان معلنا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يتقدم بنفسه لتغيير ما يقدر على تغييره، ولا يخاف في الله لومة لائم، ومن ذلك حملته الصادقة على الغناء الذي كانت الأمة، قمة وقاعدة، قد غرقت فيه فألهاها عن دينها ودنياها، فكان يصرح بتحريمه وألف فيه كتابه المشهور « الزجر والاقباع بزواج الشرع المطاع عن آلات اللهو والسماع »، ومن هذا القبيل أيضا ما كان يذهب إليه من بطلان النسري وحكمه بأنه زنى نظراً لعدم الرقيق الشرعي، ولأن المستولدات إنما كن من المنهوبات من القبائل السودانية وفيها وهن على دين الاسلام، فلا يصح نكاحهن إلا بعد إعتاقهن والعقد عليهن عقداً شرعياً ومعهن من الأربع التي لا يحل الزيادة عليهن وإلا كان النكاح فاسداً والاولاد المتكونون منه أولاد زنى . وهي دعوة في ذلك الوقت لها خطورة عظيمة، لان الناس على اختلاف طبقاتهم من الاعلى إلى الادنى كانوا يستحلون هذا الامر . . . وقد جلب عليه ذاك عداوات وخصومات، وأوذي بسببه فطمعن في عرضه ونسبه وأدخل السجن ولكن الجماهير الشعبية فعصبت له وخرجت في جيش كبير احتجاجاً على سجنه، فأطلق بأمر عال في الحين .

وفي الناحية الدينية كان كثير الإنكار على متصوفة عصره وأصحاب الدعاوي الباطلة في المشيخة والطريق، وربما هجم عليهم في تجمعاتهم وحلقات رقصهم فيفرقهم بيده، وبما يتجلى فيه من حال ربانية لا يقدر أحد على الوقوف في وجهه من أجلها، وبأمر طلبته ورفاقه بصب الماء على المكان الذي

كان القوم يرقصون فيه تطهيرا له ويقول إنها عبادة السامري،
وله في ذلك تأليف وكتابات متعددة إلى غير هذا من أقواله
وأعماله في جميع المجالات التي ذكرناها . وكان من أول من
أنكر الحماية الأجنبية على الذين تحصنوا بها في زعمهم من
ظلم الولاة . وصرح بكفر أحد الشخصيات الذين ينتمون إلى
بيت كبير من بيوفات المغرب لما استظهر بحماية إحدى الدول
التي كانت طامعة في المغرب، وهذا بالإضافة إلى عمله المتواصل
في نشر العلم والمعرفة الصحيحة بالتدريس والتأليف والتلقين
في مجالسه الخاصة والعامة .

توسعنا قليلا في بيان دعوة هذا الشيخ ومجالاتها الغفلة
كثير من الكتاب عنه بسبب إهمال خصومه لذكره وتعديهم
تجاوز حركته .

وفي أوائل هذا القرن عاد الشيخ عبد الله السنوسي الفاسي
من رحلة له واسعة في الشرق العربي والهند وتركيا، وقام
بدعوة صادقة إلى التوحيد والعمل بالسنة . وكان ذا قوة وعزيمة
في ذلك، وبعده اقتصب الشيخ شعيب الدكالي المدعوة في دروسه
العلمية التي كان يلقيها بعواصم المغرب وغيرها من المدن التي
يزورها، وذلك بما أناه الله من بسطة في العلم وحكمة وحسن
نأت للامور، فعمت دعوته جميع الاوساط وآنت أكلها طيبا سواء
بالنسبة للتوحيد أو العمل بالنسبة، والتف حوله كثير من علماء
الشباب . وغيرهم وتخرج به أفواج عديدة من الطلبة الذين بشوا
دعوته في كل مكان . وكان من أكبر زلامته الذين رفعوا
الراية بعده الشيخ محمد بن العربي العلوي وهو من العلماء
المتمكنين الذين واصلوا الدعوة بقوة أيام حياة الشيخ شعيب

وبعده، وكان في فاس مرجع الشباب الناهض وقدوة العاملين في ميدان الإصلاح .

وجاء جيلنا الذي تبني الدعوة إلى السلفية في العقيدة والعبادة والنضال من أجل رفع راية الاسلام وإيجاد الارضية التي تقوم عليها دولته، حرة من كل تدخل ومستقلة عن كل تحكم. وهكذا انقلبت الدعوة إلى إصلاح عام وجهاد في سبيل العزة والكرامة على ما كان عليه الامر أيام السلف الذين أعلى الله بهم منار الاسلام وجعل المسلمين يداً على من سواهم . وكان من أبرز دعاة السلفية بهذا المعنى المرحومان علال الفاسي ومحمد فازي والاساتذة محمد المكي الناصري ومحمد الطنجي وإبراهيم الكتاني، واتصلت حركتنا بالشيوخ عبد الحميد بن باديس في الجزائر وأخذناه من أعضاء جمعية علماء المسلمين بالجزائر وكتبنا في صحفهم وأيدناهم في المعارك التي كانوا يخوضونها في هذا الصدد كما أيدونا في معاركنا المتنوعة .

واعترضت الدعوة في الاخير بداعية كبيرة كان مقيما في البلاد المشرقية، حين عاد إلى موطنه المغرب، وهو الدكتور محمد تقي الدين الهلالي فيسر الله على يده فتوحات مهمة في جيل الشباب والشيوخ على السواء، وتمرس به أساتذة وطلاب صاروا من جند الدعوة هنا وهناك .

إن هذا العرض السريع، وإن لم يستوعب جميع الدعاة، يبرز دور العلماء المغاربة في الدعوة بكل وضوح، فعدو دور فعال كان له تأثير بالغ الأهمية على حياة الاسلام الصحيح في هذه البلاد وفي البلاد التي تسبح في فلكها من غرب إفريقيا وما والاها سواء على نطاق التبليغ أو الدعوة الإصلاحية التي ترمي

إلى التجديد بالمعنى الذي أشرفنا إليه سابقا، ولا ننسى فضل جامعة القرويين ورجالها المصلحين في ذلك، فإنها ما فتئت تستقبل الأفواج تلو الأفواج من أقطار إفريقيا، فضلا عن أبناء المغرب فتكونهم تكوينا علميا صحيحا وتبعثهم رسل هداية وإرشاد إلى أوطانهم وديارهم حيث يؤدون واجبهم على أحسن وجه، وبإخلاص تام . وبذلك حفظ رفق الإسلام وبقيت معالمه فتحدى مؤامرات الصليبيين وغزو الملحدين في العهد الاستعماري البغيض الذي طبق على اقارة السمراء منذ القرن المنصرم وقبله إلى اواسط القرن الحالي .

وهذا ما يجعلنا نهيب برجال الدعوة اليوم إلى النهوض بأعبائها الثقالة وأداء دورهم على الوجه الاكمل كما فعل من قبلهم لا سيما والتهارات الإلحادية قد أصبحت اقوى من ذي قبل، ودعاة التنصير يبذلون قصاراهم في تحويل المسلمين عن عقيدتهم او تشكيكهم فيها على الاقل في المرحلة الاولى، فأمام العلماء مبادئ عديدة مفتوحة للعمل والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه، وأهمها الميدان الذي يخوضون فيه معركة الايمان والمحافظة على العقيدة الاسلامية مما تتعرض له من تسور هذه المذاهب المادية على حرمتها ومنازلتها لها في المدرسة والنادي والمكتبة والسينما وغيرها من الوسائل الإعلامية والتثقيفية المختلفة التي أشربت روح العصر بكفرها وإلحادها عن قصد او عن غير قصد، وذلك في الداخل والخارج، فأما في الداخل فلا كلام في وجوب ذلك، وأما في الخارج ونعني به الاقطار الافريقية الشقية، فعلى بعثاتنا التعليمية لها ان تجعل هذا العمل هدفها السامي كما كان اجدادنا حملة الدعوة الاسلامية إليها، فلنكن نحن حفاظة على

هذه الامانة بحمايتها ودفع اليد العادية عنها . يلي ذلك ميدان تجديد الدين والدعوة إلى العمل بالكتاب والسنة ومحاربة البدع والامر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلقد استطاع جيلنا ان يقضي على كثير من المحدثات ويظهر الدين مما الصق به من المنكرات، فاختلفت عدة مواسم مما كان يقام على اضرحة بعض الصالحين فيختلط فيها الحابل بالنابل وتقوم سوق الفسق واختلاط النساء بالرجال على قدم وساق ويرتكب باسم الدين من المخازي ما يندى له الجبين، وذلك كموسم الشيخ ابن عيسى بمكناس وموسم بوعراقبة بطنجة، وما هي هذه المواسم تحيي من جديد ونستحدث مواسم اخرى تشبهها او تفوقها . وما ذلك إلا من ضعف الدعوة وتخاذلها امام المشعوذين والمتاجرين بالدين ولعل ما بين الدعاة من خلاف وعدم تفاهم، واعني بهم العلماء على العموم، هو السبب في الرجوع في حافة الجاهلية . فإن من آفة الدعوة ان يكون الجو بين اصحابها غير صاف، فيشتغلون بانسقاسف عن الحقائق . وما انتصر جيلنا إلا لانه كان على قلب رجل واحد فلم يكن بيننا خلاف في الوسائل ولا في المقاصد، وذلك ما ينبغي بل يجب ان يعود اليوم ويسود علاقات الدعاة بعضهم ببعض . وفي النهاية يجب ان يستمر العمل في ميدان التعليم والارشاد والتبيين والتبليغ عملا بقوله عز وجل : « لتبيننه للناس ولا تكتمونه » ، فإن المساجد الفارغة من حلقات العلم حجة على تقصير العلماء وتقاعسهم عن القيام بمهمتهم الاولى التي تنقذ العوام من الجهل بضروريات دينهم، وتبني المجتمع الاسلامي على أساس الاخلاق الكريمة التي بعث النبي (ص) لإتمامها . فما ظهر الانحلال الخلقي في المسلمين ونفشي

الالهاديين شبابهم إلا بهجران المساجد التي تجمع القلوب على الله وعلى دينه القويم، وعمارة المساجد إنما تكون بالعلم ومجالس الذكر التي قال النبي (ص) فيها ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفت بهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده بل إن الصلاة نفسها ما تركت إلا من ترك العلماء لواجبهم في تعريف الناس بما لهم وعليهم، ولقد أصبح هذا الأمر متحتماً على كل عالم عالم، سواء كان ممن يتعاطى مهنة التعليم في المدارس والمعاهد أو يتولى خطة القضاء أو كان فارغاً من العمل الوظيفي، لأن تعليم الطلبة قاصر عليهم ولا ينتفع العامة من القائم به ولا يسقط عنه التكليف الذي ألزمته به الآية الشريفة الآنف الذكر وهي قوله تعالى : « لتبيننه للناس ولا تكتمونه »، ومثل ذلك يقال في القاضي فإن فصله بين الخصوم لا يعفيه من زكاة العلم التي هي التعليم، وإلا كان هو ومن ذكر قبله كاتمين، ومن كتم علماً ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة، والقضاة فيما سبق كانوا أسبق إلى عمارة المساجد بالخطابة وحلقات العلم، وأما الذي لا يتعاطى عملاً من العلماء فمُسؤوليته أعظم ولا يبرى ذمته إلا أن يؤدي ما هو مكلف به من التبليغ والبيان على أتم وجه وأكمل.

نسأله تعالى أن يلهمنا رشدنا ويقينا شر أنفسنا بمنه وكرمه آمين .

خطة الحسبة

تنظيم اقتصادي اجتماعي ديني

هي احدى الخطط اي الولايات في نظام الحكم الاسلامي، مأخوذة من الاحتساب بمعنى حسن التدبير والنظر في الامر، كما في القاموس وصاحبها المحتسب، وتسمى ايضا ولاية السوق لان اكثر انظر صاحبها فيما يجري بالاسواق. من غش وخديعة وتفقد مكيال وميزان وما اشبه ذلك .

ولعل التسمية الثانية ترجع الى اصل نخطبها فقد ثبت ان النبي (ص) ولي سعيد بن العاص على سوق مكة، ونوالى الامر على ذلك حتى اتسعت دائرة نظرها فشملت كل ما يحتسب فيه من امر بمعروف ونهي عن المنكر فحينئذ استقرت تسميتها بالحسبة. قال المارودي في كتابه الاحكام السلطانية: «حاصل الحسبة امر بمعروف ظهر تركه، ونهي عن منكر ظهر فعله. قال تعالى: (ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) الآية، وهي في حق فيره أي المحتسب فرض كفاية، وايضا عليه ان يبحث عن المنكرات الظاهرة وعن ما ترك من المعروف الظاهر، ويعزر في ذلك ويتخذ عليه اعوانا

ويعدى اليه فيه وليس ذلك لغيره وهي واسطة بين احكام القضاء واحكام المظالم).

وظاهر من هذا انها وظيفة دينية دنيوية معا، وليست وظيفة دينية فحسب، كما عدها ابن خلدون وهي في ذلك مواكبة لفلسفة الدعوة الاسلامية التي تجمع بين الدين والدنيا ولا تفرق بينهما، ومن ثم يقال ان الاسلام مصحف وسيف وعبادات ومعاملات، ويخطيء من يقيسه على النصارائية التي فصلت الدولة عن الدين او على اي فلسفة تجعل المحكم بمعجبة من الاخلاق.

الحسبة في السلم الوظيفي

الحسبة بما لها من اهمية في المجتمع الاسلامي تأتى بعد ولاية المظالم وخطه القضاء في السلم الوظيفي على صعيد المدن والاقاليم، كما تشعر به عبارة المواردى السابقة، وكما كان عليه الحال الى قريب من منتصف القرن الراهن في المغرب. ويبين اهميتها ما حظيت به من عناية الدارسين واهتمام الباحثين، حتى خصت بالتأليف، وكتبت فيها عشرات المؤلفات باقلام جهابذة العلماء من المشرق والمغرب، متحدثين عن اختصاصاتها وصفات المحتسب وما الى ذلك، الامر الذي لم تظفر به الولايات الاخرى ولا سيما ولايات (المظالم) و (الرد) الذي يعتبر بمثابة الاستئناف و (الشرطة). ولعل السرف في ذلك يرجع الى شدة ارتباطها بمصالح الافراد والجماعات وسهرها على الامن النفسي والعيش الرضى المواطنين، كما يتبين من اختصاصاتها ومجالات العمل فيها.

اختصاصاتها

وبحسب ما يذكره الفقهاء وما تضمنته كتب الحسبة فإن كل ما يتعلق ببخس وتطفيف في كيل أو وزن وما يتعلق بغش وتدليس في مبيع أو ثمن وما يتعلق بمطل وتأخير في دين أو أجر، هو من اختصاصات الحسبة، وينظر فيه المحتسب عند الرفع اليه ويبت الحكم فيه إذا لم يتوقف الأمر على إثبات. ثم هو ينظر نظرا عاما في مصالح المدينة والسكان فيقمع المنهكين للحرمات ويغير المنكرات، ويحافظ على العوائد الحسنة ويأمر بالمعروف حتى إذا رأى صبيا نائها فإن عليه أن يبعثه إلى الكتاب أو إلى المصنع ويتفقد طرق الشوارع فيواخذ المكلفين بالتنظيف إذا اخلوا بواجبهم ويمنع شغل الطريق بما يعوق حركة المرور ويخفف الأثقال عن الدواب ويحبس الحيوانات الضاربة التي قد تؤذي المارة كالكلاب وغيرها ويمنع رفع الأصوات بالغناء وإطلاق أجهزة الاذاعة بكيفية تؤذي الجيران والعموم، ويراقب المطاعم والأغذية المعروضة للبيع للاطمئنان على خلوها مما يضر بالصحة العمومية، ويدخل الحمامات للتأكد من نظافتها واستعمال المآزر ويتفقد الصنائع والحرفيين للحرص على سلامة أعمالهم من الغش والتدليس وكذا الجزارين والبقالة، وما شابههم فيختبر بضائعهم وموازينهم منعا للخيانة والتطفيف، وكذلك يتفقد أسواق الصاغة وباعة الحلبي لضمان الأمانة وعدم استغلال سداجة النساء ورقتهن ماديا أو خلقيا، وكل ذوي الصنائع والحرف التي يحتاج إليها الناس يشملهم نظره، ويتعين عليه عدم الغفلة عن ملاحظة أحوالهم واعتنائهم بما فيه راحة زيناتهم والمتعاملين معهم سواء فيما يرجع للكفاءة المهنية أو بالمكنة والادوات التي يستعملونها من حيث الصلاحية وعدم الضرر.

التممين والتسعين

إذا خيف من التلاعب بالاثمان نتيجة المضاربة في السلع الأولية جاز للمحتسب ان يأمر بوضع الاثمان على السلع المطلوبة ومعاقبة من يخالف ذلك.

واما التسعين فقد ورد النهي عنه ولكن لغلبة الحرص على الناس اجاز الفقهاء التسعين بل طلبوه في خصوص المواد الغذائية كالدهن والزيت واللحم وما شابه ذلك، رعاية للمصلحة العامة، واشتروا فيه اذن الامام العادل وجمع وجوه اهل السوق له، نعم في بعض الحالات كالاختكار ونحوه يجب التسعين.

صفات المحتسب

اشترط الفقهاء في المحتسب ان يكون فقيها قائما مع الحق نزيها عالي الهمة معلوم العدالة ذا امانة وحلم وقيمة لا يستغزه طمع ولا تأخذه في الله لومة لائم ولا يجعل على احد حتى يعذر اليه.

بين الحسبة والبلدية

تصور بعضهم ان اختصاصات الحسبة هي اختصاصات البلدية، ورأوا ان في إقامة البلديات غنى عن الحسبة وهو باطل بنا ذكرناه من سعة نظر المحتسب وشموله لمصالح الافراد والجماعات، ومطالب الدين والدنيا، في حين ان مهمة البلدية مدنية محض، وهي بعض من كل مما يهتم به المحتسب، ثم ان المحتسب كما بينا حاكم يفصل في كثير من الخصومات اليومية، ولا كذلك البلدية، ولا ينكر ان هناك تداخلا في بعض وظائفهما، ولكن البلدية بكل حال لا تغني عن الحسبة ابدا، وقد وجد فراغ كبير

في المجتمع المغربي بل الاسلامي على العموم بعد تعطيل سلطة المحتسب وحجب تصرفه الذي كان يجعل من المدينة في عالم الاسلام مجتمعاً فاضلاً قريباً مما دعا اليه الحكماء وجاء به الانبياء، وما يزال المصلحون ينادون به .

وغير خفى ان نظام البلديات نظام غربي منبثق من حضارة غير حضارة الاسلام التي تعطي للمعنويات اهمية كثيرة وتتحرك باعتبار ما يقتضيه شرع الاسلام من التوفيق بين مطالب الروح والجسد، وذلك هو ما جعل مهمة المحتسب مزدوجة .

من تاريخ الحسبة

رأينا ان نشأة الحسبة بدأت على عهد النبي (ص) وكان عمر في ايام خلافته يقوم بها بنفسه، واستمرت العناية بها من الخلفاء على اتم وجه، وكانوا لا يولونها الا من توفرت فيهم شروطها من العلم والحزم والدين، ومن وليها في ايام الخليفة الهادي العباسي، الامام فافع بن عبد الرحمن احد القراء السبعة، وسار الامر على هذا المنوال في المغرب، ففي ايام الموحدين كان ممن وليها الفقيه الاديب الشاعر ميمون الخطابي، فانا نجد في ترجمته انه ولي حسبة الطعام بمراكش العاصمة . وهذا يعني انها فرعت الى فروع منها حسبة الطعام. وفي ايام المرينيين كان شاعرهم عبد العزيز الملزوري ممن اسندت اليه ونقرأ في حوادث سنة 691 ان السلطان ابا يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق امر بجعل الصيغان على يد النبي (ص) وذلك على يد الملزوري . وطارت للحسبة في المغرب شهرة لكفاءتها وحسن تدبيرها، جاوزت حدود الوطن الى بلاد المشرق، كما تدلنا على ذلك حادثة الحاج

المغربي الذي اودع ماله عند بعض التجار المصريين فجعله اياه، وعظمت المصيبة على الرجل حتى كاد يفقد عقله وصار يطوف بالشوارع ويقول من لي بابن ماواس ؟ من لي بابن ماواس ؟ والناس لا يعرفون من امره شيئا، ولا من هذا الذي ينادي باسمه، وكان ابن ماواس محتسب فاس وهو ابن الموقت المشهور ابي العباس ابن ماواس، وبقي الرجل على حاله حتى بلغ خبره ابن ماواس فاهتم بشأنه، ورحل الى مصر واتصل به وعرف قضيته واحتال حتى استخرج الوديعة من التاجر الجاحد، وأبلغ امره الى السلطات المصرية التي عاقبته بما يستحق ورجع ابن ماواس والحاج المغربي الى ارض الوطن بعد هذه الرحلة الناجحة، والمهمة الغريبة، والحكاية مذكورة بتفصيل في كتاب الانيس المطرب للعلمي .

وذكر الشيخ ميارة انه كان يرى في صغره بمكتب المحتسب رفونا عليها كتب عديدة، ولما سأل عنها قيل له انها مؤلفات في احكام الحسبة ينظر فيها المحتسب ويستعين بها على مهمته .

فالامر كان جدا كما نرى، والقضية تتعلق بخطة حكم، تنتظم بها شؤون الاقتصاد والاجتماع والدين في آن واحد، ومن المؤسف ان يطفى عليها تيار الغزو الاجنبي في العالم الاسلامي كله، ذلك الغزو الذي انحسر تياره ماديا ولكن رواسيه المعنوية ما تزال قائمة تثير الشجون وتقلب العيون، ولكن الامل في جلالة الملك نصره الله وطيد في إعادة هذه الخطة الى ما كانت عليه، فهو الذي يستطيع ان يعيد المياه الى مجاريها مع ما تتطلبه الظروف الوقتية طبعاً من التعديلات والاصلاحات .. والله ولي التوفيق.

فهرست الكتاب

صفحة

9	ذكرى نزول القرآن وتحقيق في تاريخه
27	الحديث وقيمه العلمية والدينية
49	الدين والشباب
64	مستقبل الاسلام بيد أبنائه
85	عقيدة المرشدة للمهدي بن تومرت
105	ابن رشد الفيلسوف فقيها
	العمل، هذه القاعدة المحكمة (بفتح الكاف المشددة)
119	في مذهب الامام مالك
133	دور علماء المغرب في الدعوة الى الله تديماً وحديثاً
149	خطة الحسبة

تصحيح بعض الاخطاء المطبعية الواقعة في هذا الكتاب

ص	خ	س	ص
عشرة مئة وسبع	عشرة وسبع	17	12
ابن مسعود	ابن سعود	13	13
بلفظ فصل القرآن	القرآن بلفظ فصل	7	14
الدنيا فجعل جبريل	جبريل الدنيا فجعل	8	14
الآية 1	الآية	20	15
الحض	الحظ	3	17
المنتفرون	بالمنتشرون	18	20
ومنهم من يقول	ومنهم يقول	1	22
كانا	كان	7	22
تعملون	تعلمون	8	22
او انما	او نما	6	27
وليس	رايس	9	37
الحدِيثين	العهدين	15	38
تستفد	تسغد	13	46
لا يهطل النفود كلها	كلها	5	47
وشريعته	شريعته	6	54
زمن التحجير	من التحجير	17	60
فرح	نهج	10	67
الامامة	الامامية	15	94
مذاكرته	مذكراته	13	109
ل	لا	22	118
احداها	احدها	11	114
الموحدون	الموحدين	23	117

ص	س	خ	ص
يحكم	11	بعكم	120
بالتحيز	24	بالتحيز	120
اجماع اهل	13	اهل اجماع	124
مثلا	11	مثال	128
محمد بن أبي	23	محمد أبي	128
حشد	19	جيش	143
بالسنة	20	بالنسبة	144
الحسبة هي احدى	3	هي إحدى	149
الحكم	8	الحكم	150
الموردي	12	الموردي	150
المتكهن	6	المتكهن	151

ظهر للمؤلف

في مجال الدراسات الاسلامية

- (1) مفاهيم اسلامية ط بيروت
 - (2) إسلام رائد ط ثالثة بمصر
 - (3) شؤون إسلامية ط المغرب
 - (4) تحركات إسلامية ط المغرب
 - (5) على درب الاسلام ط المغرب
 - (6) الاسلام اهلى ط المغرب
 - (7) القدوة السامية للناشئة الاسلامية ط ثانية بيروت
- وكتب أخرى في الفقه والحديث .

مطبعة الشويخ / دببرس» تطوان